أدب الرحلات

العربي بنجلّون

لأنّك هناك

قصتي مع السفر





WWW.anaweenbooks.org
info@anaweenbooks.org
/anaweenbook

العنوان: كأنك هناك

المؤلف: العربي بنجلّون

المقاس: 14 × 20 سم

الطبعة الأولى: 2022

إخراج فني: القباني للكتابة والتنسيق

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عناوين BOOK

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب - حضرموت:

2022 / 286

٢٧٠٧٩٠٢٣٣١

1

قصتي مع السّفر

لا أذكرُ ساعةَ ومَكانَ لقائِنا، لكنني أذكر، تفصيلًا، حوارَنا الطويلَ، الذي كنا فيه معًا

مُخترِزَين، يُحاول كلٌّ منا ألّا يقعَ في شَرَكِ الآخر، بل أحسَسْتُ أنّ مُحاوِرتي تريد أن تنتزع مني (اعترافًا) لِجِهةٍ ما، فأُسقِطَ في يدِها...!

سألتني مستغربةً:

- مِن أين يأتيكَ هذا المالُ الذي تُنفِقُه على رحلاتك، شرقا وغربا، وأنت (مُجَرّد) أستاذٍ مُتقاعدٍ، بالكادِ تصِلُ بك أُجرتُكَ آخرَ الشهرِ؟!.. لو كنتَ في اليابان، لقلْنا إنّك تتقاضى أجْرا أكثرَ من (وزيرٍ) فهناك (يُكرِمون المُعلِّمَ، ويوفونَ له مالًا وأدَبًا وحُقوقًا) كي «يَبْنِيَ جيلًا، ويُنشئَ عُقولًا» كما قال الشاعر أحمَد شوقي.. لكنّ القدرَ أراد لك أنْ تظهرعلى أرضٍ جذباءَ، لا تُقيمُ وزنًا للعلم والثقافة والأدب والتربية والفن.. أعني الفنَّ الرّفيعَ، لا الوضيعَ!

لَمْ أُرِدْ أنْ أُقاطعَها، لأنّ سؤالَها كثيرا ما كانوا يطرحونه عليّ، إمّا فُضولًا منهم، أو حُبًّا للاستطلاع، وإمّا لِمَعرفةِ من يُمَوِّلُ هذا الأستاذَ (واللّبيبُ يفهَمُ بالتّلميح، لا بالتّصريح)؟!

فأجبتها باسِمًا، عَمَلًا بقوله تعالى (وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

- يا لكِ من (نَبيهَةٍ)!.. أوافقك الرّأيَ، أنني أعيش على أرض لا تعترف بأهل الفكر والأدب. لكنْ، هل تظنّينني أُقَتِّرُ على نفسي، وأُمسِك يدي على أسرتي، للقيام بِهَذِهِ

الرحلات المُفتعةِ؟!.. أمْ أقْرِضُ من المَصْرِف، كما يفعل البعضُ؟!.. أمْ أنّ جِهَةً ما، تُجْزِلُ لي العَطاءَ لِسَوادِ عُيوني؟!

بادرتْ تسألني بعينين متلألئتين، كأنّني أعطيتُها سَهماً ترميني به:

- وأنتَ، أيُّها (العاقل) أتظنُّ أنّ السماءَ سَخِيّةٌ لِهَذِهِ الدّرجة، فتُمطِرَكَ تذاكرَ سفرٍ غاليةً، والإقامةَ في فَنادِقَ خَمسةِ نُجومٍ، وما تَحمِله معك من مُكافآتٍ وهدايا، يندلِقُ لَها اللُّعابُ على اللّحى والصدور، وو...؟!

اِبتسمتُ في مُحَيّاها ثانيةً، ولَمْ أُعانِدْ فكرتَها:

- أصَبتِ كَبِدَ الحَقيقةِ، سيدتي!.. إن كلَّ أسفاري من فضل الله، تأتيني من حَيثُ لا أدري، ولا أعْلَمُ كَيف تقصدني، أنا بذاتي وصفاتي؟!.. ثِقي بأنّها دَعواتٌ من منظماتٍ ثقافيةٍ، واتّحاداتِ كتابٍ، ووزاراتِ ثقافةٍ، ومراكزَ إعلاميةٍ، عربيةٍ وأُوروبيّةٍ. لكنني لَمْ أصِلْ إلى هذه المَرحلة من العطاء والسّخاء المُجزِيَينِ إلا بعد سنواتٍ طويلةٍ من المُعاناةِ في العطاء الأدبي والتربوي، وسهر الليالي في القراءة والتفكير والكتابة، ولَمْ تَأْتِ هكذا بِمَحْضِ الصُّدفةِ!

صَمَتتْ قليلًا، ثُمّ استَدرَكَتْ قائلًا:

- وأيضًا، لا أنكر أنّ (الحَظّ السّعيدَ) يلعب فيها دورا كبيرا، وإنْ كنتُ لا أومن بالحَظِّ، ولا ما تُفتيـهِ عليّ الأبراجُ، ولو في الحُلم!

- ماذا تعني بالحَظّ، أيُّها (المَحظوظ)؟!

إستَويتُ في جلستي شارحا:

- أصغي إليّ جيّدا، سأحكي لكِ واحدةً مِنْ ألفٍ!.. دَعتني يومًا (هيئةُ الشارقةِ للكتاب) قصْدَ الْمُشاركةِ في مَهرجانِ الطفل القرائي، الذي تنظمُهُ كلَّ سنةٍ من عشرين إلى ثلاثين من أبريل. وكانتْ تذكرةُ السّفر للدرجة الأولى، فكان ذهابي مُريحًا جِدًّا، إذْ منذ وصلتُ مَطارَ الدار البيضاء، والْوُجوهُ تَبتسمُ لي، وتُرَحّب بي، وتُجيبُ عن أسئلتي بالْبَشاشةِ، التي ما كنتُ سألاقيها لوْ كانت تذكرتي للدرجة الثانية!

ولَمّا أردتُ أنْ أعود من دُبَي، فاجأتني موظّفةٌ في شركة الطيران بأنّ هناك طارئا، تعتذر عنه، ونَحنُ في الرابعة صباحا!...فظننتُ لأوّل وَهلةٍ، لا سَمَحَ الله، أنّ حربًا نشِبَتْ، وأنا غافلٌ عن الدنيا وما يَحدُثُ فيها، أو إضرابًا شُنَّ، أو أُجِّلتِ الرحلةُ، إلَخ... وأنّها ستمدد إقامتي بالإماراتِ، وكل هذا غالبا ما يقعُ، وكاد، ذاتَ سفرٍ لي، أنْ يقع، أثناءَ رحلتي إلى ألمانيا، بدعوةٍ من قناةِ دويتشه، عندما ثار بُركانُ إيسلاندا سنةَ 2010 فتوقّفتْ كلُّ الرّحلاتِ بأروبا، إلاّ أنّ فِراسَتي هَدَتْني إلى تَعجيل السّفر، قبل إلغاءِ الرّحلاتِ بِساعةٍ فقط!

لنترُكْ برلين، ونرجِعْ إلى دُبَي: إنّ الْمُوظّفةَ الْمَسؤولةَ في شركة الطيران، ضربتْ كلَّ ظنوني في الصِّفرِ، وشرحتْ لي الأمرَ، بِما لَمْ يَخطرْ على بالي البتّةَ، وعلى بالك:

- بِما أنّ رجالَ الأعمال حَجَزوا كلَّ الدرجاتِ الأولى، لِحُضور معرضٍ اقتصادي ببلدك، فإنّ الشركةَ فكرتْ في ترضيتك، بأنْ تَمنَحك تَعويضا، يَتَمثّل في قَسيمةِ شِراءٍ، وتذكرةَ سفرٍ في الدرجة الأولى إلى أية دولةٍ في العالَم، مفتوحةً طيلةَ السنةِ، كما ستخصص لك عربةً لنقلك داخلَ الْمَطار إلى أنْ يَحينَ وقتُ إقلاع الطائرةِ، شريطةَ أنْ تقبَلَ الرُّكوبَ في الدرجة الثانية، فماذا تقول، سيدي؟!.. (توضيحًا لِمَنْ لَمْ يزرْ مَطارَ دبي، فإنّ مساحته لا تُحَدُّ بالْعَينِ، غالبا ما يستعمل الرُّكّابُ قطارًا سريعًا، للتّوجُّه من مدخلٍ إلى مَدخلٍ، أو من بابه الرئيسي إلى قاعة الاستقبال، فلم أرَ مثلَه شساعةً في الدول التي زرتُها، ولِهَذا يسّرتْ لي الشركةُ التّنقُّلَ بالعربة)!

أطرقتُ أفكّر قليلا، وأنا في الحَقيقة، وافقتُ في سريرتي، منذ أنْ لفظتْ بالكلمة الأولى، ثُمّ رفعتُ رأسي لأقولَ لَها بوجْهٍ (مُـتَـجَهِّـم) في الظاهر:

- على كلِّ حالٍ، أنجزي الوثائقَ الضروريّةَ، فأنا لا أريد أن أضَعَ العَصا في العَجَلةِ!

ظهرتْ على شفتيها ابتسامةٌ خفيفةٌ:

- شكرا جزيلا، سيدي، على قبولك عَرْضَنا!

قـدّمتْ لي قسيمةَ الشراء، وتذكـرةَ السّفرِ المَفتوحـةَ، وأمـرتْ عامـلا أنْ يُـرْكِـبَـني عربةً لـيـوصلـني إلى قـاعـة الاستـقبال، ويتوقّـف بي في المَتـاجـر، لأقـتـنيَ منها ما تـشتهيه نفسي بالقسيمة، فانطلقتُ إلى المحلاّتِ التّجاريّة، أقتني منها كلَّ ما غلا ثَـمَـنُهُ وخَـفَّ وزنُـهُ، إلى أنِ استوفيتُ مبلغَ القسيمةِ بالتّمام والكَمالِ...!

وعندما صعدتُ الطائرةَ، أخذتني المُضيفة إلى جَناحِ الدرجة الأولى، بِجانبِ رجال الأغمال، ذلك أنَ الراكبَ الذي حَجَز مكاني، عدَل عن السفر في آخر لَحظةٍ، فَهاتفتِ المُوظّفةُ طاقمَ الطائرة بأنْ يَمنَحوني الدرجة الأولى، دون أن يسحبوا مني القسيمةَ والتذكرةَ المَفتوحةَ!

أليس هذا حظّا سعيدًا؟!.. رُبّما ستسمِّينَهُ تَهَوُّرا، أو تدبيرا سيِّئا لشركة الطيران، لكنْ، بالنسبة لي، حظٌّ حسنٌ، فعليّ أنْ «أستغلَّ هذا الحَظَّ ولا أفوِّته لأنه من نصيبي» كما قال باولو كويلو في رواية «الخيميائي» وأنا لِحَدِّ الآنَ لا أصَدِّق ما حَصَل!.. فهل هناك من أراد أن يُكْرِمَني، دون أنْ يُشعِرَني بِسَخاء جيْبِه، وإنْ كنتُ لَم أمدَحْ أحَدا، أو أشكرْ جِهَةً، وهذا السلوكُ من طبعي، ومن عادتي دائِما، منذ أنْ فَتَحتُ عينيّ على الوجود؟!.. لكنْ، يُمكِنني أنْ أخبرَكِ، بلا تَحفُّظ، أنني شاركتُ بثلاثِ مداخلاتٍ مرتَجَلةٍ، مصحوبةٍ بوسائل الإيضاح، ونالت التّقدير!

كما أنّ تصرّفاتي كانت مُتّزِنةً، طيلةَ الأيام التي قضيتُها هُناك؛ فَلَمْ أُظْهِرْ شرَهها أو نَهما، مِثلَما يَفعلُ الكثيرون، ولَمْ ألْهثْ وراءَ كاتبةٍ أو فنّانة، أو أتجاوَزْ حُدودَ الأدب مع أيِّ عُضوٍ. ولا أعني بذلك أنني ملاكٌ مَعْصومٌ، فأنا كسائرِ عِبادِ اللهِ، لكنّني أترُكُ (الفريسةَ) تأتيني من تلْقاءِ نَفسِها، دونَ عناءٍ أو شَقاءٍ...!

إذن، ألا يَستأهِلُ هذا العَبدُ الفَقيرُ إلى ربِّه، المُعترِفُ بذَنبِهِ، أنْ يُمضِيَ أياما هنا، وأُخرى هُناك، ويُمَلّي عينيه بِما حَبا الله تلك الدولَ من مَناظِرَ طبيعيةٍ، ومتاحفَ ومراكزَ عِلميّةٍ وحدائقَ ومعارضَ كتبٍ ولوحاتٍ تشكيليةٍ، وآثارٍ عُمرانيةٍ...؟!

هَزّتْ رأسَها مُوافِقَةً، ثُمّ سألتني:

ـ لنتّفِقْ أنّ كلَّ ما قُلْتَهُ صَحيحٌ، فما الذي يَجْعلك مَهووسا بالسفر، وأنت في هذه السّنِّ المُتقدّمة، التي بدأ فيها عظمُك يَهِنُ، ورأسك يشتعلُ شَيْبا، والسّفرُ «قِطعةٌ من العَذاب»؟!.. ما الذي يُغريكَ فيهِ، ويشُدُّكَ إليهِ، إنْ لَم تكُنْ لك نَوازعُ خفيّةٌ؟!

أحسستُ أنّني مَهما حاولتُ أنْ أقنعَها، فلن تقتنِعَ، لأنّها تريد أنْ تَصِلَ إلى شيءٍ ما. فسؤالُها غيرُ بريءٍ، ونظراتُها ثعلبيّة، لا تستقرّ على حالٍ!

قلتُ لَها باسِما.. يقول الشاعرُ:

لا يَعرِفُ الشَّوْقَ إلَّا مَنْ يُكابِدُهُ

ولا الصّبابـةَ إلَّا مَنْ يُعانيها

والرحلة أو السفر شَوقٌ، وأيُّ شَوقٍ، فكيف تعرفينه إذا لَم تذوقي طَعْمَه؟.. ومَهما حاولتُ أنْ أُحدِّثَكِ عنه، فلنْ تعرفيه، بقدر ما عرفتُه، لأنّني عِشتُهُ وكابَدْتُهُ!.. لقد كان والدي بائعا متجوّلا بين المُدن المَغربية الكبرى، كطنجة وتطوان ومكناس ووجدة...

وحينَ أسأل أمي عنه، تُطَمئنني بأنّه سيعود ليلةَ الْخَميس، حاملا بين يديه لعبا وحلوياتٍ وفواكهَ شهية (خصوصا المكسراتِ، كاللوز والجوز...) وكذلك كان!.. إذ كنّا نرى الْجاراتِ، ليلةَ الْخَميس، يَمشُطن شعورَهُنّ، ويُسدِلْنَها على أكتافِهِنّ، ويُجَمِّلْنَ وُجُوهَهُنّ بالْمَساحيقِ، ويُكَحِّلْنَ عيونَهُنّ بِالْكُحْل، ثُمّ يتطيَّبن بالْعِطر، فنعرف بِحَدْسِنا الطُّفولي أنّ (حَوّاء ستُعطي التفّاحةَ لآدمَ)!

ولَمّا تُوُفّي والدي، وأنا لا أتجاوز الْعاشرةَ من عُمري، لَمْ أفقِدْ أبي فقط، إنّما فقدتُ اللعبَ والْحَلَوياتِ أيضًا، لأنه لَمْ يُخَلِّف لنا (شَرْوى نَقيرٍ) ولَمْ أعُدْ أتلقّى شيئا من أحَدٍ، ولو في الْعيد، وأمي فقدت) اللوزَ والجوزَ(ولَمْ تَعُد، تتمتّع بليلة (الْخَميس) كسائر النساء، طيلة حياتِها السادسة والتسعين خَريفًا!

ومنذ ذلك الْحين، وأنا أتَمَنّى أنْ أصْبِحَ أبي، لأحضِر لعبا وحلوياتٍ وملابسَ لأبنائي، فقدِ ارتبَط السفرُ في مُخَيِّلتي بالأشياء الْجَميلة، كأنّ مَنْ يسافر، يقصد سوقا للتبضُّعِ فقط. لكنّني، عندما كبرتُ، تَحَوّلتْ دلالته إلى التواصل والتعارف والاكتشاف والابتكار، وأصبحتِ الأشياءُ الأخرى مُجَرّد كمالياتٍ، لا تُغْني ولا تُسمِن من جوع. فعشقي للسفر، ورِثتُهُ عن والدي وجدي؛ إذ كانا مدرستي الْحَياتية الأولى التي تَخرّجتُ منها...!

والْمَدرسة الثانية، إذا جاز التعبير، هي تلك الْمَعرفةُ التي كوّنتُها عن السفر أو الرّحلة، وحَفّزتني على السّير قُدُما في هذا الطّريق الوعرِ؛ فلولا رحلة الرسول من مكةَ إلى الْمَدينةِ، ورحلة أصحابه إلى الْحَبشةِ، ما كان للإسلام أنْ ينشر ظلَّه الرّحيمَ على الْعالَم، فهذه (رحلة دينية).. ولولا رحلة إدريس الأكبر من الْمَشرق إلى الْمَغرب، ما كان لقبائلِنا أنْ تتوحّد، وتُكَوِّن لَها كِيانا وطنيا، فهذه (رحلة سياسية).. ولولا رحلة الإدريسي إلى صقلية، وفرنسا وإنْجلترا وأسيا، لَما توصّل إلى تصميم خريطة العالَم، التي اهتدى بِها علماءُ أوروبا، فَهَذِهِ (رحلة علمية).. ولولا رحلة عبد الكريم غَلاّب وعبد الْمجيد بَنجَلّون ومُحَمّد التازي ومُحمّد بَرّادَة وإبراهيم الشولامي وأحْمد الْمَجّاطي وأحْمد عبد السّلام الْبَقّالي، ومُحمد عابِد الْجابري...إلى الشرق، ما كان بلدُنا يفخَر

بأطر وأدباء وفلاسفة وصحافيين في عهد الاستقلال، فهذه (رحلة تعليمية).. وسواها من الرحلات، كالتّجاريّة (رحلتي الشتاء والصّيف) والرّسمية أو السياسية، كالوفود والسّفارات...وإذا كان النُّقادُ والمُنَظِّرون يعتبرونَ الرّحلةَ (واقعيةً) لأنّ مَفهومَها يدل على (الارتِحال من بلد إلى آخر) والرّحّالة (التّاء للمبالغة) يروي (ما عاينه بنفسه وعاشه من مواقِفَ وأحداثٍ، وما لَمَسَهُ من سلوكاتٍ ومُعاملاتٍ وحقائقَ) فأخرجوها من حَلَبَة الأجناس الأدبية، ومنهم (دومِنيك كومِبْ) الذي عدّها (مقالةً) كالسيرة والمُذكّرة والتّقرير، وعدّها آخر «جنسا أدبيا مُهمَلًا»!... فإنّها بالنسبة إليّ (أمُّ الأجْناسِ) كلِّها، لأنّها تتوفّر على القواعد الفنية الأساسية في الكتابة، وعلى حضور الذّاتِ الكاتبةِ المُنكتبةِ، وموقفِها من مشاهداتِها، وما توظّفه من لغة وتَمَثُّل وانتقاءٍ، وتوصيفٍ وحوارٍ، وراوٍ وشُخوصٍ رئيسيةٍ وثانويةٍ، ونقطةِ انطلاقٍ ونِهايةٍ مُضيئةٍ، وإشراقاتٍ ذكيّةٍ في تَجسيد تلك المُشاهداتِ المُلتقطةِ بدقّةٍ!

هذا دون الحَديثِ عن الرّحلة المُتَخيّلةِ، كـ «العائد» التي أدرجتُها في مَجموعتي القصصية «الخَلفية» وهي رحلة السارد إلى العالَمِ الآخر، يلتقي فيه بالشاعر علال الفاسي والكاتب عبد الجَبّار السحيمي والشاعر مُحَمّد الحَلوي والأديب طه حُسين، ثُمّ يعود في رحلة ثانية إلى الدنيا، ليخبر ابنه بحالِ ذلك العالَم، فـ «الإنسانُ وُلِدَ راحِلاً، وإنْ أعْجَزَتْهُ الرِّحْلةُ، تَخَيَّلَ رَحَلاتٍ غَيْرَ مَحسوسةٍ في عالَم مُتخَيل»: يقول الكاتب المصري شوقي ضيف!

إنّ الرحلة هي حركة، تُبَدِّد السُّكونَ والرّتابةَ، وتُحَفِّز على خَوض غِمارِ الحَياةِ، حتى إنّ الإمام الشّافعي ربط السفرَ بالعقل النّاضج، ورآهُ من خصائص الأدب، فقال:

ما في المُقامِ لِذي عَقْلٍ وذي أدَبِ

مِن راحةٍ، فَدَعِ الأوطانَ واغْتَرِبِ

لكل تلك العوامل، الذاتية منها والمَوضوعية، المَوروثة والمُكتسبة، جَنَحَتْ نفسي

إلى الرّحلة، فأنتجتُ نصوصا أدبية، بعضُها مُوَجّه للكبار، وبعضُها للصّغار، نشرتها في مجلة «العربي الصغير».. وما كتاباي «أنْ تُسافر» و«كأنك هناك» إلا نَموذَجانِ حَيّانِ لتلك الرّحلات التي قُمتُ بها إلى الشرق والغرب، فاسْتَمتعي بها، إنْ قَبِلْتِ ورَضيتِ...!

* * *

2

إسطنبول.. أريجُ الرواية والتاريخ!

كان تشارلز ديكنز عاشقًا لمدينته لندن، ونجيب محفوظ للقاهرة، وعبد الكريم غلاب لفاس، ومحمد شكري لطنجة، وأسماء الزّرعوني للشارقة، وأورهان باموق لإسطنبول...كانوا عاشقين لمدنهم، وكذلك آخرون!

ونصوص الأخير - باموق - الروائية، كـ «متحف البراءة» و «الكتاب الأسود» والسيرة الذاتية «إسطنبولُ الذكرياتُ والمدينةُ» تستحضر مدينة سحرية وحزينة في الحينِ نفسه، تفقد طريقَها بتلاشي الإمبراطورية العثمانية، التي مزقها الصدام بين العلمانية والإسلام السياسي وإغراءات الغرب. وكل شخصياته غارقة حتى النخاع في النخبة العلمانية، التي تُمضي حياتها اليومية في الصراعات مع المحافظين والمتزمتين، والهواجس والاضطرابات، وفي المقاهي والحانات، والشّهوات والنّزوات!

وأنا هنا، أجدُ نفسي تائها بلا بوصلة تُرشدُني، في الأزقة المتفرعة عن ميدان (تقسيم) كجثة ما زالت تتنفّس، بين الحيطان العالية. لست وحْدي، بل آلاف الجثث التي ألقى بها البحرُ على شاطئ إسطنبول، أو الجو في مطار أتاتورك، أو مطار صبيحة كوكْجن!.. جثث من الشرق والغرب، تلهج ألسنتُها لغاتٍ مختلفةً، ورؤى متلونةً، وتُحَدّق بأعين متلألئة أملا وشوقا ورغبةً، لكنها تحاول أن تتساكن وتتعايش، عَلّها تُلفي بين هذه الكتل البشرية (قاسما) مشتركا تلتئم حوله...!

«ما كنت أحسَبُني أحيا إلى زمن «يا أبا الطيب المتنبي، فتقعَ عيني، وأنا أجتاز مصلحةَ مراقبةِ الجواز، على مُلصقٍ طويلٍ عريضٍ، يظهر ناصعا لأغمى البصرِ والبصيرةِ، يرسم (خارطةَ الطريق) في تركيا: «تُسَجّل كلُّ الأشرطة والصور والكلام»!.. وهذا يعني، بأدق تعبير وأفصحِه، أنّ عليك، أيها الزائر، أن تغلق مصورتَك، بل أن تُكَمّمَ فمَك، لا تنطق إلا بسملةً وحمدلةً، فهما كافيان شافيان،

وسواهما محظور محظور عليك، يا ولدي!.. لكن، لماذا تتكلم، ولماذا تصور، وحكامك وفّروا لك العملَ والطعامَ واللباسَ والسّكنَ والكتابَ والفنّ؟!.. ماذا ينقصك، فتنتقدَهُم، وتُشغِلَ بالَك بهم؟!

عملنا بالنصيحة الغالية، ودخلنا إسطنبول آمنين سالمين ونحن ندعو الله، من قبلُ ومن بعدُ، بالشكر والحمد على ما أعطى من سكونٍ، وعلى ما أخذ من شُؤونٍ!

في حي (نيسانتاسي) أمضى باموق طفولته وشبابه ورجولته، لم يفارقه طيلة ستة عقود، أو يتخلص من جاذبيته السحرية، ما جعل أعمالَه الروائيةَ جميعَها تدور في فلك هذا الحي، لتنطلق منه إلى كل نواحي إسطنبول!

فكّرتُ طويلا، في أن آخذ، كلَّ يومٍ، قهوتي الصباحية في (نيسانتاسي) لأتنسّم أجواءَ ذلك الكاتب، الحائز على نوبل. فكانت مرافقتاي - زوجتي وابنتي - تسألاني حائرتين:

- لماذا تقصد هذا الحيّ بالذات؟!.. ألا يمكنك أن تستغني عنه يوما، فتغير المنظرَ المُعتادَ؟!

فأجيب باسما، وأنا أصَبِّرُهُما:

- لا أستطيع أن أقنعكما، حتى نعود إلى المغرب، فتقرآ رواية إسطنبول!

مُكوثي في هذا الحي، يُسْعِفُني على أن أستحضرَ تلك الأجواءَ الغرائبيةَ، المبثوثةَ في روايات باموق، وهو الذي متّعني برواياته، ولولاها لَمَا أتيتُ هنا أصْلًا، وإن كنتُ أعتبر بعضَها مُجرَّدَ فساتين مزخرفة مزركشة، نسجها بدقةٍ وإتقانٍ جيدين من أثوابٍ عربيةٍ، مختلفةِ الألوان والأشكال «القلعة البيضاء» نموذجًا، الرواية (المقلوبة) لحياة ليون الإفريقي، الحسن الوَزّان، وهذه قصة أخرى، ستجرُّنا إلى نقاشات نقدية مستفيضة، ليس لها قرارا!

من هذا الحي (نيسانتاسي) تخطو بك رجلاك إلى البوسفور، الذييبدو لك مساحةً مائيةً داكنةَ الزُّرقة، تذرعها السفن والقوارب ذهابا وإيابا. إنه الحبل السُّرّي الذي يصل ضفتي إسطنبول، الأوروبية والأسيوية، بين البحر الأسود وبحر مَرْمَرة، إما

عبر جسرين طويلين معلقين، أو على مَتن البواخر، أو القطار الذي يتسلل كالأفعى الرّقطاء تحت الماء، ليعبُر حوالي تسعةَ وعشرين كيلومترا!

في عام 1982 قال أورهان باموق بالفم الملآن، وهو يتأمّل مَضيَقَ البوسفور، ويشير إلى إسطنبول:

- «أنا أنتمي إلى هذه المدينة»!

كيف لايصرّح باموق بانتمائه إلى إسطنبول، وشُرفةُ شقته تطل على مسجد(جيها نغير(الذي يصمد في وجه الزمن، منذ القرنِ السابعَ عشرَ، وتحيط به المآذن العملاقة، الصّدّاحة بالأذان، والحافلة بالنوافير الرخامية، والنُّصب التذكارية، الباقية على قيد الحياة، وهذه القصور الإمبراطورية...كيف لا، وخلفه البوسفور، الذي تحضُنُه قصورُ حسيب باشا، قبرصي، محسن زادة، توبكابي، جيراغان، بيلربيي، عادلة سلطان...وقلعة يوروس الرومانية بمساحة خمسمائة متر، تحميها أبراجُها التي تعلو من ستين إلى مائة وثلاثين مترا؟!

ولقد فتحها قائدُ حَملةِ العُثمانيين محمدُ الفاتح، فأطلق عليها إسلامبول أو الأسِتانة، وليست) أستانة عاصمة كازاخستان) بدل القسطنطينية، لتصبحَ عاصمةً عثمانيةً. وكانت رؤيتهُ صائبةً وثاقبةً، لأنه أدرك أنَّ الأرضَ التي تتوفّر على الماء، قابلةٌ للحياة، أي للتعمير والتطور والرقي والازدهار. فالبيزنطيون شيّدوا في القرن السّادسَ عشرَ (آيا صوفيا) أكبرَ خزّانٍ للماء في العالم، تحت سطح إسطنبول. وحظي بتقدير فنانين ومسرحيين وشعراء وروائيين، ومنهم الكاتب الأمريكي (دان بروان) الذي ألف عنه رواية «الجحيم» لحد أنّ النقاد والصحافيين والقراء، يأتون إسطنبول، ليشاهدوا الآثار التي تضمّنتْها الرواية، كقصر توب كابي، برج جالاطا، السوق المصري، جامع السلطان أحمد...لكن، كل ذلك لم يعُد قائما بذاته ولذاته، فالحاضر هو الجمهورية التركية، الدولة العلمانية، المُشرئبّة نحو العالم الغربي، بصُروحِها الحضارية والعمرانية والفكرية والسياسية والأخلاقية!.. غير أنّ هذا الغربَ العالِمَ والعاقِلَ، يتحاشى أرضَ العثمانيين، فيرفض أن يتبنّاها، وإن كانت تُجْهِر بعلمانيتها، لأنه يُدرِك أنّ «العِرق دَسّاس» ومكانُها الطبيعي، هو الشّرق!.. كما أنّ

موقعَها، كمدينة يلتقي فيها الشرق مع الغرب، عدّها نابليون بونابرث «أرضا تربط العالمَ كلّ «.. لم يشفعْ لها، ولم يسلّمها تأشيرةَ المرور (شنغن)!.. وبدورها أحسّت بذلك النُّفور الغربي، فمالت جِهَةَ الأصل، التي تطفح نفطا ومالا، فليس لها غيرها سوقا يُنعِشُها، ويُمَدّدُ عُمُرَها...!

والأتراك، منذ (سيدنا نوح) تعودوا أنْ يَجُسّوا نَبضَ العالم، قبل أنْ يَتّخذوا أيّ قرار، فأينما كان طَوْقُ نَجاتِهِمُ الاقتصادي جَنَحوا إليه. كما أنّهُم يترصّدون الفُرصَ المواتيةَ، فيقتنصونها من بعيد، بل يحفظون عن ظَهر قلْبٍ، البيتَ الشعري الشهيرَ لأبي الطيب المتنبي:

بِذا قَضتِ الأيامُ ما بين أهلِها

مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ

وكمثال، حين (طُوّقت قطر (مِنْ قِبَلِ أخَواتِها الأربع، كان الأتراكُ أولَ مَنْ يفُكُّ ذلك الْحِصارَ عليها، فـ (يُرْضِعونَها حليبَهُمْ) ليرسّخوا نفوذَهم وهم بارعون في ذلك، براعةَ اللقلاق في نَسْج عشّه..!

ألا تذكرُ حين فكّرت تركيا في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وهي الدولة العلمانية أولا، والدولة التي تقرّبت من أوروبا باستعمال الحرف اللاتيني، لتذوب في المستنقع الغربي ثانيا، والدولة التي تطبق حرفيا وبأمانة ما تُمليهِ عليها البلدان الغربية ثالثا، والدولة المشاركة في حِلْف (الناتو) رابعا...أُجْهِضت رغبتُها في مَهدِها، لأنها دولة (إسلامية) وإنْ كان لم يعد يَصِلها بالدين إلا شعرةُ مُعاويةَ؟!.. فشقّت عصا الطّاعة على هذا الغرب الأناني، لتنضمّ إلى روسيا...!

وهي، الآن، بين مفترق الطرق، تخبط خبطَ عشواءَ في كل اتّجاهٍ، لا تدري ماذا ينبغي أن تفعله؛ إذ كانت تتربّص بسورية، لتقضي على حكمها البعثي، فدعّمتِ المعارضةَ، وغضّتِ الطرفَ عن الإرهابيين المتسللين عبر حدودها، ليُقوّضوا ركائزَ الحكم هناك، فإذا بخمسة ملايين سوري، يلوذون بها، ويصبحون عبئا ثقيلا عليها، لا

من الناحية الاقتصادية فقط، إنما من ناحية الهوية الثقافية واللغوية. فالسوريون، رسّخوا أقدامَهم في منطقةِ الفاتح بإسطنبول، بتشييد مدارس ومكتبات، تنشر اللغة العربية، ما جعل التُّركَ يستشعرون الخطر، كأنّ جُهْدَ أتاتورك في تغيير الحرف العربي باللاتيني، وحظر الطربوش والعمامة، وإلغاءِ المدارس الدينية، والمحاكم الشرعية، واستلهام القوانين من الدستور السويسري.. بعد تسعين سنةً، ذهب كلُّ ذلك الجهدِ أدراجَ الرياح، فحظروا كتابَةَ العناوين الكبرى بالعربية!

يرتدّ طَرْفُك عن البوسفور، ليمتدّ طولا وعرضا إلى (ميدان تقسيم) أو (ساحة الاستقلال) كما يحلو للبعض أن يسميها. ويُحيلُنا الاسم الأول على القرنِ التاسعَ عشرَ، حين كانت المياه(تُقسّم) على أحياء المدينة، والاسم الثاني على التحول الكبير لتركيا إلى دولة مستقلة على يد قائدها التاريخي مصطفى كمال أتاتورك 29 أكتوبر 1923، وبها مركز ثاني أقدم نفق للمترو في العالم، بعد لندن!.. ولحدّ اليوم، تُمَثّل الساحةُ رمْزا تاريخيا وتحرريا، فيها تُنَظَّم الوقفاتُ الاحتجاجيةُ، وتنطلق المظاهراتُ والمسيراتُ التصحيحيةُ!

وإذا كنتَ تودّ أن تجتازها، فعليك أن تتأكّد من أنَّ كتفيك ما زالتا صُلبتين، قادرتين على أن تتحمّلا الاحتكاكَ، بل التضاربَ بين الأكتاف، لأنّها تشهد في ساعة الذّروة ثلاثةَ ملايين نسمةٍ، موزعةٍ على متاحفَ وقناصلَ ومتاجرَ ومطاعمَ ومكتباتٍ ودورِ السينما والمسرح...في شارع طويل، يمتدّ ثلاثةَ كيلومتراتٍ ونصفا، كأنك تجتاز ساحةَ الحشر. وبين الفينة والأخرى، تخترق الأمواجَ البشريةَ الحافلةُ الكهربائيةُ القديمةُ، التي تعود إلى العهد العثماني، ويمكنك أن تمتطيها، أو تترجّلَها متى تشاءُ، وهي تزحَف ببطءٍ، كالسلحفاةِ أو الحَلَزون...!

لا ينبغي أن تستغرب من ذلك، فإسطنبول هي ثاني أكبر مركز حضاري في أوروبا، ومن بين أكثر مدن العالم سكانا، إذْ يصل عددُهم خمسةَ عشرَ مليونا، بينما نيويورك لا تتجاوز ثمانية ملايين!.. والغالبية من سكانها يستقرون في المنطقة الأوروبية، ويفضلون أن تتوفر بيوتهم على شرفات، لينعموا بالتلال والبحر والبوسفور. ويقال في المثل الشعبي التركي: «شقة بلا شرفةٍ، كرجل بدون بطنٍ» والمثل قديم، لأن

البطنَ المتدلي كان علامةً على الغنى والوَجاهةِ والوَقارِ، وحتى في عصرنا الحاضر، هناك مَن ما زال يتبنّى هذه الرؤيةَ الخاطئةَ. وبالمناسبة، ستلحظ المواطنَ التركي، يتّسمُ بخصائصَ متباينةٍ؛ فهو سخِي اليد، طيّبُ القلبِ، لا يتخلّى عنكَ ساعةَ الضيق، وفي الحين نفسه، حادُّ المِزاج، يندفعُ نحوَ غرضه، ليحققه بأيةِ وسيلةٍ؛ فقد يدوسُ رجلَك، أو يدفعك دفعا، أو يضربك بذراعه أو كتفه، دون أن يعتذر لك، أو يهوي على كرسي لمائدتك في مقهى، بلا إذنٍ، فتحس بضيفٍ نزل عليك فجأةً، من حيث لا تعلم، لم تحسُبْ له حسابا...!

وفي هذه الساحة الفسيحة (الاستقلال) هناك ما يجذبك ويشدُّك، كالنُّصب التذكاري الضّخم، الذي يُجَسِّد ثُلّةً من الشخصيات السياسية في حقبة أتاتورك، ضامّةً أيديَها إلى صدورها، بينما أتاتورك مادّا يديه، نحتها الفنان الإيطالي بيترو سنةَ 1928 تخليدا لدورها النضالي في تحرير تركيا!

وفي الليل، تنتعش النفوس العطشى إلى الحرية الفردية في أبهى حُلتها، أو أرذلها (يتوقف هذا الوصف على مدى رؤيتك وقناعتك) ففي الأزقة المتفرعة عن شارع الاستقلال (ولم يُخْطئوا عندما أطلقوا عليه هذا الاسم) تلتقي بأجناس بشرية ملونة، لا تميز بين ذكورها وإناثها، فكلهم يلونون وجوههم بالمساحيق، ويُسْدِلون شعورهم المركبة، ويرتدون الفساتين والتنورات، التي تبدي جمالهم، ويلصقون بصدورهم حمّالاتٍ، وبمؤخراتهم نفّاخاتٍ، ليوهِموا المتسوقين والمتبضعين بروعةِ البضاعةِ، وجودتِها الرفيعة. فهذا سوق عالمي، يُغري البائع والمشتري من كل أنحاء المعمور، ويلعب بعقليهما؛ تُقابل فيه السوري والتركي والأوكراني والتايلاندي والتونسي والمغربي والروسي والفرنسي...لكن، حذار أن تلقى ما لا تُحمَدُ عُقباهُ، لأنَّ الدروبَ الضيقةَ محفوفةٌ بمخاطر، لا تَخطُر على بالك. فقد يباغتك البارعون في (رياضة الأصابع) ليسلبوا كلَّ ما في جيوبك، وتعود إلى بلدك مذموما، خاويَ الوفاض، خاسِئَ الرأس، مُرَدّدا في أسًى شديدٍ:

- ليتني ضبطتُ نفسي، وفتحتُ بصيرتي، وما صرتُ أعمى أمام نزوتي!

وإنْ كنتَ تريد أن تعمل بالقولة الذّائعة الصّيتِ «معرفة الأشياء، خير من جَهلِها»

فافعلْ مثلي، ولا تَـخَـفْ:

أحسستُ، ذات ليلةٍ، بـضـيـقٍ، فخرجتُ لأتـجـول، وأشاهـدَ مـنـظـرَ الشارع ليلا، وهو يَغْلي كالمِرْجَل. وكعادتي، كنتُ (صِفْرَ الـيـديـن، خـاوي الجـيـبـيـن) إلا من ثـلاث لـيـرات، حوالي تسعة دراهـمَ (دولار واحد). فاعـتـرض طريقي شابٌ سوري، وحياني بابتسامة باهتة: GooD NIGHT, Sir.

أجبته ضاحكا:

ـ وأنت أسعد، سيدي الكريم!

ـ عذرا، ظننتك أجنبيا!.. عمّ تبحث في هذا الزُّقاقِ؟

ـ أبحث عن مكتبة؟

ـ أتريد كتابا فرنسيا أم أوكرانيا أم صينيا أم نمساويا...؟

قاطعته، قبل أن يسرد لي موسوعةَ أسماءِ كلِّ دول العالم:

ـ لا، أريد كتبا عربية، أنتقي منها ما أشاء؟

ـ ماذا تـقـول، ياعمي؟!.. أنت كبير السن، لا تستطيع أن تقرأ كتابا واحدا في ليلة واحدة!

ـ هـذا لا يهمك بـتـاتـا، ولعلمِك أنا مُـدمـنٌ على القـراءة والكـتـابة، لـيـلَ نَهارَ، لا أرفعُ عيني عن الكتاب، ولو كانت صفحاتُهُ ألفًا!

لم يُجِبْني، إنّما التفت يمينا ويسارا، حَذِرًا، ثم طأطأ رأسه، ودَسَّ يـدَه في جَيْب شترتِه الجلدية الضيقة، ليسُلَّ منه سِجِلًا صغيـرا، مليئا بصور بائعات الهوى، قائلا:

ـ اِخْـتـر كتابًا تَطيبُ له نفسُك!

اِستغربتُ من غَرَضه وحديثِه، فقلت له:

ـ أعـوذ بـالله!.. ما هـذا، يا بُـنَيّ؟!.. أنـا طـلـبـتُ مـنـك أن تـدلّـني على مكتبة، لا على

كلية البنات العانسات!

سألني بعينين حائرتين:

- ألم تقل لي إنك تريد كتبا؟!

- أجل!.. لكنك رُبّما لم تفهم قصدي!

صرخ في وجهي، وعيناه متدليتان، ويداه مرتعشتان:

- الكتب، يا عمي، في هذا الزُّقاق، وفي هذه الساعة من الليل، هي(النساء) الكلمة المتداولة، ولا يأتي إلا من يريد أن يقرأهُنَّ في خمسِ دقائقَ فقط، ويبدو لي لا تُناسبك إلاّ الموسوعة!

وسكت قليلا، قبل أن يسألني:

- أتريد أن أحضِر لك إحداهن أم لا؟!

ربتت على كتفه، وألقيتُ في كَفِّه المبسوطة ليراتي الثلاث، ثم قلتُ له بأعصابٍ هادئةٍ:

- لا، يا بني!.. أنا أريد كتبا كتبا، لا نساء نساء، ولا موسوعة!

وتركتُهُ يتفرّسني بنظرات نقّاثة، كأنه لم يصدق عينيه ممّا رأى، وأذنيه ممّا سمع!

الناس هنا، يُمارسون حريتهم، مثلما يَنشُدُونَها ويرَوْنَها، لا تسمعُ، وأنت مارٌّ بين الحانات، غيرَ قَعقَعةِ الكؤوس والقناني، والأفواه تصيح: نَخبَكَ، عزيزي!

أو أصوات النُّدُلِ والسّاقياتِ، الذين يسيرون بين الموائد، ليصبوا النبيذ في الكؤوس، تردد evet نعم، كي لا يثور ثَمِلٌ في وُجوهِهِمْ!

ولا يخلو أيُّ مكانٍ تمرُّ به، من فرقة موسيقية، كأنَّ أركانَ الشارع كلَّها أجواق، تعزف ألوانا من موسيقى العالم، ينجذب نَحوَها المارون، فيُقبلون زُرافاتٍ ووُحدانا، إما ليصفقوا ويرددوا المقاطعَ الغنائيةَ، وإمّا ليرقصوا مُشَكّلينَ دوائرَ، لا تلبثُ أنْ تتسِعَ

بالملتحقين. وحين تتوقف الأجواق عن العزف، يغفُر المتفرّجون القُبعاتِ، أو الطُّسوتَ النُّحاسيةَ الموضوعةَ على الأرض بالليرات. ويُطلقون عليها) موسيقى الشارع) تلحَظ العازفين والمغنين سوريين، يتغنون بوطنهم الضائع، وبحنينهم إلى أرضهم وأهلهم!

لم أكتفِ بزيارتي لحي أوهان باموق (نيسانتاسي) إنّما حاولتُ أنْ أقتسم هذه الرغبةَ بينه وبين(السوق الكبير Büyük Pazar (الذي سأسترجعُ فيه أجواءَ وشخصياتِ وأحداثَ رواية «قواعد العشق الأربعون» لأليف شفق. فلولا هذا السوق، لما كانت الرواية، ولما تزوجتْ أليف ذلك الزواجَ الذي عاندتْ به الذكوريةَ التقليديةَ. فهي من مواليد ستراسبورغ بشرق فرنسا، ولم تكن تصل الرَّحِمَ بإسطنبول قَطعا، لو لم تزرها زيارةً خاطفةً، لغرض توقيع اتفاقية نشر رواية، فالتقتْ بالصدفة، الصَّحافي أيوب جان، في مقهى بـ (السوق الكبير) ومن هنا، ستستوحي (قواعد العشق الأربعين) قاعدةً تلو قاعدةٍ، إلى أن تستوفي الأربعين، فتُقيم في إسطنبول!

فيْ ذلك اليوم، عانقتُ زوجتي بيميني، وابنتي بيساري، وسرتُ بِهما إلى (السوق الكبير) وهما يتفرّساني في غاية الدهشة والذهول!

- سنرتشف قهوتنا الصباحية في مقهى أليف شفق!

قلتُ لهُما، فاغترضتْ ابنتي قائلةً:

- ومن تكون أليف شفق؟!.. أهي صاحبةُ المقهى؟

- لا، أعذُرك، إنْ كنتِ لم تعرفيها، فأنتِ مُحاسبةٌ، عالمك ينحصر في المال كأخويك، لا صلةَ لكم بالأدب!.. أليف شفيق، يا كبدي التي تمشي على الأرض، مؤلِّفةُ عددٍ كثيرٍ من الروايات، منها «لقيطة إسطنبول» و «قواعد العشق الأربعون» التي كان هذا المقهى الغَرزَ الأولَ لنسج خُيوطِها. لقد سقطتْ أليف في حُبِّ أيوب جان، وقرّرتْ أنْ تظل في تركيا، لتتمرّد على التقاليد التركية، أو هيمنة الذكورية في تسيير أمور العائلة. فالرجل أصبح هو الوطن، بدل المرأة، كما تعودنا أن نردد في الأدبيات. ثم إن أليف قلبتِ الطاولةَ على العاداتِ الشرقيةِ، فطلبتِ الزواجَ من أيوب، لتؤكد أن العشقَ لا يأتي من الرجل فقط، إنما من المرأة أيضا!.. بل تجاوزتْ هذا الخطَّ، إلى

أنْ أباحث للزوجة، الأم لثلاثة أطفال، أنْ تصبح عاشقةً لزميل لها، درس معها في المدرسة، فكانت تختلس، بين الفينة والأخرى، عملياتٍ جنسيةً في مكتبه. مثل بطلة باولو كويلو في روايته «الزانية» الأم لولدين. وسواء نظرنا إلى المرأة الأولى أو الثانية، فهما معًا تعانيان مع زوجيهما برودا جنسيا، ما دفعهما إلى تجديد شعورهما وتنشيطه بعلاقات أخرى. وهذا يؤكد أنّ المرأةَ ليست مفعولا به، كما نوهِمُ أنفسَنا، بل فاعل أيضا، كما الرجل، يَرشَحُ بالأحاسيس والرغبات الإنسانية!

ولقد قال أيوب لأليف ضاحكا:

- أول طلب عكسي للزواج في تاريخ البشرية..!

لكنها لم تُصَدِّق نفسَها، فسألته:

- أحقًّا، طلبتُ منك ذلك؟!

ردّ مُؤكِّدا:

- أجل!.. يمكنك أنْ تتراجعي عن طلبك، إذا أحببتِ!

أكَّدتْ طلبَها بثقةٍ وشجاعةٍ:

- لا لا، لن أتراجع!.. أُجدِّدُ طلبي بأنْ تتزوَّجني!

وتزوّجا تَوًّا!

فاجأتني ابنتي بسؤالها:

- وأنت، هل تسمح لي بأنْ أطلبَ يَدَ شابٍّ أحبُّهُ، مثل ما فعلتْ أليف الكاتبة الجريئ؟!

أجبتها باسما:

- عندما طلبتْ أليف الزواجَ من أيوب، كانت متيقنةً أنه مثلها، يسعى إلى المساواة بين الجنسين في كل شيء، حتى في الرغبة، لأنه كان عضوا في منظمة حقوقية، يطابق فعلُهُ قولَه. فهل شابُّك يشاطرك نفسَ الأفكار، ويؤمن بحتمية

التطور والتحرر من التقاليد والأعراف والعادات؟!

أطرقتْ تفكر قليلا، ثم أجابتني كاسفةَ الوجه:

- لا، أبدًا!.. يريد زوجةً، تُشبه أمَّه تماما، مطيعةً لزوجِها، خاضعةً لمشيئته، صائمةً عن الكلام، تدخل في عباءته، دون أدنى تحفظ، أو ملاحظة، أو اعتراض، كيلا ترى إلا ما يراه!

- إذن، سيعُدُّكِ (ضعيفةً) مَهيضةَ الجَناح، يستقوي عليك، ويحرمك حقوقَك الطبيعية!.. لا، يا بُنتي!.. حاولي ألاّ تضعي في مِعْصَمِكِ سِوارا، ولو كان ذهبًا، كي تُحلّقي طليقةً في أعلى السماء، فتغني بحريةوتطردي عنك الزّعيقَ النّشازَ!.. هذا ما جاد بي سَهمي، ولكِ واسع النَّظَر!

رشفنا قهوتَنا الصَّباحيةَ في السوق الكبير، ثم سرنا تحت سقوفه المقبّبة، التي تعتبره الموسوعاتُ من أكبر الأسواق المسقوفة في العالم. تدخله من ثمانيةَ عشر بابا، وتجتاز فيه واحدا وستين شارعا، تفرّقُها ثماني عشرةَ نافورةً، وتخصُّ اثني عشرَ مسجدا، وأربعةَ آلافٍ وأربعَمِئةِ مَحلٍّ تجاري، وألفين ومِئتي ورشةٍ...ولقد وصفه جوزيف برودسكي، الفائز بجائزة نوبل، في «رحلة إلى إسطنبول» بأنه (جسد يضُمّ (فؤادَ ودماغَ وروحَ إسطنبول (بل) مدينة في قلب مدينة(!

إسطنبول مدينةُ المتاحف والحدائق والقصور والآثار، لا يرتادها إلا الفنانون والكتاب والشعراء، الذين ينشُدون الإلهامَ الإبداعي والجمالي، واللمسةَ الفنيةَ؛ ففيها من المتاحف ما لا يُحصى، ولا يراودك في الحلم، كمتحف الحشرات، ويضم أكثر من عشرين ألفًا، يُخضِعها العلماء والباحثون لتجاربَ علميةٍ، وليست للزينةِ أو العرضِ فقط. ومتحف الثلج، والسمك، والأسلحة والألبسة والأواني والغُفلة العربية...!

وهناك متحف الشمع، تباغتك فيه شخصياتٌ علمية وأدبية وفنية ورياضية وسياسية، قريبة من حقيقتها، لأنّها شُكّلت من أقنعةٍ، أُلبِسَت لها، خصوصا الأيدي والأرجلَ، لحد أنك لا تستطيع أن تميز بين الشخصيتين، الحقيقية أو الحية والفنية. ولا غرابةَ في ذلك، لدرجة أنّ الميتةَ منها، أُخرِجَت جُثَثُها من قبورها، للتأكُّد من

قسماتها وشكل أعضائها، وهذه ليست مبالغةً أو مُغالاةً. ومن هذه الشخصيات : إلفيس بريسلي، ومايكل جاكسون، وليوناردو دافنشي، وكارل ماركس، وجلال الدين الرومي، ومصطفى كمال أتاتورك، ونابليون بونابارت، والمهاتما غاندي، ومحمد الفاتح، وجنكيزخان، وألبرت أينشتاين وستيف جوبز، أو سمير الجندلي، المدير التنفيذي لشركة (أبل).. وأثناءَ زيارتي لهذا المتحف الفريد من نوعه، قابلني تمثال الرئيس الأمريكي السيئ الشمعة جورج دبليو بوش، فاجتزتُهُ بسرعةٍ إلى المهاتما غاندي. وإذا بحركتي السريعة، غيرِ العاديةِ، تسترعي فضول ابنتي، فنادث عليّ لآخذَ صورةً معه، بصفته رئيسَ أكبر دولةٍ في العالم، فاعتذرتُ لها قائلا:

- والله لو ملأوا خزائني مالا وذهبا، لما قبلتُ أنْ ألتقط معه صورةً!

ضحكتْ مني متسائلةً:

- وماذا فعل لك، كي تتخذ منه هذا الموقفَ؟

- أعذُرك ثانيةً، فأنتِ لم تشاهدي ما فعله بالعراق، لأنكِ كنتِ طفلةً! لقد كان قرارُ الحربِ، سببا في قتل أكثر من مليون عراقي وتهجير الملايين، وتعذيب الآلاف، ونَهب المتاحف، وتحطيم الحضارة والعمارة، والقضاء على العلم والعلماء، والثقافة والمثقفين.. أيُشَرِّف أباكِ، رجلَ التربيةِ والتعليم وكاتبَ الأطفال، أنْ يلتقطَ له صورةً مع سفّاك الدماء؟!

طأطأتْ رأسَها، ثم شبكتْ ذراعَها بذراعي، واتّجهت نحو الباب لتغادرَ المتحفَ قائلةً:

- لا، يا أبي!.. لا يشرفُني ذلك، ولا يُرضيني أنا كذلك!

3

خطواتُ هارون الرّشيد

في العالَمِ الجَديد!

[1]

حالَفَه الحَظُّ، وليس للمَرّة الأولى، أن يَجتازَ صفا طويلا من المُسافرين، ليصلَ مصلحةَ فَحصِ الجَوازاتِ في مطار نيويورك، (جون كِنيدي) ماضيا (رونالد ريغان) حاليا ـ دون أن يُسأل، كسائر عباد الله، أو يُفَتَّش من قُنّةِ رأسه إلى أخمَصِ قدمِهِ، أو يَخلَعَ حذاءه وحزامه، أو يفتح حقيبته، فيعبثون بِمُحتوياتِها، بَحثا عن أشياءَ إنْ عَثروا عليها تُفرِحُهُم!.. فلرُبّما كان لِمَلامِحِ وجهِهِ الموريسكِيّة، ولِحيته الشَّهباء، وبَذلتِهِ العصريةِ، وبضعة كتب ومَجَلات يضُمُّها تَحتَ إبْطِهِ، ولِجُرأتِهِ الهادئةِ، أثرٌ في ذلك الحَظ..!

لَكِنْ، يذكر أن موظّفا تقدّم منه، وهَمَس في أذنِهِ ناصِحا:

ـ أصغِ إلَيّ، أيُّها الكَهل!.. حفاظا على سلامتك، يُستَحسَن أنْ تضع في جيبك حَفنةً من الدولارات، حتى إذا طلب منك شخص غيرُ مُتّزِنٍ دولارا، لا تتردد في مَنحِه إياهُ، ولا تُناقشهُ أو تنصحهُ، فهو غالِبًا من المُدمنين، المُتقلّبي الأمزجة، الهائمينَ على وُجوهِهِم في شوارع نيويورك!

هَزّ للناصح رأسَهُ بابتسامةٍ خفيفةٍ، موافقا وشاكرا، دون اعتراضٍ أو مُناقشةٍ، وانصرف خارجا من القاعة الكبرى، ليجد أمامه في البَهو مُرافقةً جذابةً، في زَهرتِها الأربعين، تَرفع يدَها اليسرى ورقةً عريضةً، عليها اسمُه (بالعربية): هارون

الرشيد..!

قالت له بوجهٍ باسِمٍ:

- أهلا وسَهلا!.. أعتذر لك، نيابةً عن المدير، لعَجْزِ ميزانية مَكتبتِنا عن توفير تذكرة سفر سياحية!

وأخرجت من حقيبتِها ظرفا، سلمتهُ لصاحبنا قائلةً:

- أرجو أن يكفي هذا المَبلغُ البسيط حاجاتِك الضرورية، خلال إقامتك معنا خَمسة عشر يوما!

دسّ الظرفَ في جيبِ سُترَتِهِ متسائلا:

- إذن، ستكون الإقامة غيرَ سياحية، هي الأخرى؟!

أجابته ضاحكةً:

- لالا، ليس لِهذه الدرجة، وإذا احتجتَ إلى مبلغ إضافي، سأؤَمِّنه لك بسرعةٍ!

وأطلقتْ عِنانَ سيارتِها في طريق طويل، فسارت بِهما حوالَي خَمسٍ وأربعين دقيقةً، لتبلغ نيويورك، وهي، في الوقت نفسه، ولاية كبرى، عاصمتها (ألباني).. أما نيويورك المدينة الضّخمة، فتجذبك بعماراتِها الشاهقة، وشوارعها الفسيحة، وأسواقها الصاخبة، ومَحلاتِها التّجارية، ومظاهرها الصارخة، فمن سياراتِها الفارهة إلى عرباتِها التي تَجُرّها الخُيول، أو يَجُرُّها الإنسانُ، مثلَما شاهد في بعض الدول الأسيوية، وهي، في الحَقيقة، مدينة المُتناقضاتِ، لكنها تَجعلك دائِما «تَمشي مُنتَصِبَ القامة، مَرفوعَ الهامة» لأن كل بناياتِها تَمتدّ سطوحُها نَحوَ السّماء..!

وظلتِ السيارةُ تَنهَب بِهما الطريق المُكتظّ، ساعةً كاملةً، إلى أن توقّفتْ بشارع (برودوايْ) الرئيسي، فقالت له المُرافقة:

- هنا، ستحلو لك الإقامة، لأن أكثر المَسارحِ والمَكتبات والحَدائق تنتشر في هذا الشارع، وأهَمُّ الفَنادق. فاختَر منها مُصَنّفا يعادل المبلغَ الذي بين يديك، إلا ذلك الفندق المُنزوي!

حذّرته، وهي تشير بأصبعها، فسألَها في ذُهولٍ ودهشة مَشوبين بخَوفٍ شديدٍ:

- لِمَ تستثنين ذلك الفندقَ بالضبط؟!.. أيُقيم فيه المدمنون؟!

طأطأت رأسَها، وأجابته مرتبكةً:

- لا أدري ماذا أقول لك...؟!

وصمتت قليلا، قبل أن تزيد متلعثمةً:

- على كلٍّ.. سوف لا تنعَمُ فيه بالراحة.. ففي كل ساعة، ستطرُق إحدى بائعاتِ الهَوى بابك: سيجارة من فضلك.. قَداحة.. عازل طبي لزبونٍ في غرفتها، ينتظرها بنفاد صبرا.. كأس شَمبانيا مُقابلَ...وهذا يعني أنّك ستتحوّل من كاتب أطفالٍ إلى بَقّالٍ...!

أطلق ضحكة عالية:

- يا لَلْخَبَرِ السّعيدِ!.. أنا لَم أقبل بالمَجيءِ إلى العالَمِ الجَديد، إلا لأكونَ بين جَنَباتِهِ هارونَ الرشيد؛ ففي بلدي يَحظُرون، عَلَناً، كلَّ ذلك!

بادرت قائلة، كأنّها كانت تنتظر هذه اللحظة:

- إذا كان كذلك، فلماذا لا تنزل في شقتي، وتُوَفِّر لك قدرًا كبيرًا من المالِ؟!

أدهشه عرضُها، فَخَرِسَ لسانُه.. ولَمّا لَم يردّ، حسَمتِ المَوْقِفَ مُتَجَهِّمةً، وخاطبته بنبرةٍ عاليةٍ:

- ألا تريد؟!.. إذن، غدا في الثامنة صباحا نلتقي بِهَذا المَقهى (غامبْ)!

ما كان ليرفض طلبَها، لكنه فعل، لأنه تعوّد أن يسافر وحده، ويعيش حياته وحده، ولا يُطَوِّق عنقَه بأيِّ التزام، أو يَحتفظ بعلاقة، ولا يودّ أن يُحِسَّ بأية رقابة عليه، ولو من طرف الجِنس الناعم.. زِد على ذلك، أنّ جيبه، ولله الحَمد، مَملوء!

إنْ ينسَ، فلنْ ينسى تلك التماثيل المُصطفة على طول شارع (برودواي) فهي

تلخص للزائر تاريخَ الفكر والعلم والثقافة والأدب والسياسة والاكتشافات التي عـرفها العالَمُ الجـديـدُ، مُـنـذ تـأسيـسِـهِ، وتُغطي للناشئةِ مِثالا حيا يُختذى!

ومرارا عاد إلى نفسه يسألها، كأنه يلومها:

ـ كيف غفل عني أن أنشئ تَماثيلَ لعلماء وأدباء وفلاسفة ومفكرين وفنانين في عاصمتي العربية، بدل القصور التي شيدتُها، والسجون التي فَتَحتُها، والليالي المِلاح التي أقفتُها؟.. هذا تِمثال عالِمِ الفيزياء ألبِرْث أينشتاين، وذاك تِمثال المُلَحّن الإيطالي جوزيبي فيزدي، وهُنا يَنتصِب تِمثال الرحالة كْريستوفَر كْلومبوس، وهناك تِمثال الحُرية لامرأة ترفع شعلة باليد اليمنى وكتابا باليسرى، مُرَحّبةً بالمُهاجرين!

وأمرُّ بِحديقة (البولينج الخَضراء) الهادئة، وهي أقدم حديقة بنيويورك، إذ يعود تاريخُ إنشائِها إلى سنة 1733 وببابِها يستقبلني (تِمثالُ ثورٍ هائجٍ) بقرنيه القويين الحادّين، ليوحِيَ إلَيّ بالنُّمو الاقتصادي والإنتاجي لوطنه!.. كيف لَم أقتدِ بِهِم، فأبنِيَ المَدارسَ والمَتاحِفَ والحَدائقَ، واكتفيتُ بالقيل والقال، والكَذب والتهريج؟!.. يالي من أهبل!.. ماذا سيقول عني التاريخ؟!.. ولَكَم تَفاجَأتُ، حين امتطيتُ قطارا، فوجدتُ لوحة معلقة، مَوسومةً بـ (الشعر في حركة poetry in Motion) كُتبتْ عليها قصيدة حول البنائين، أي أنّ الشعر يساهِمُ في حركة التنمية، وليس كلاما فقط. وفي كل مرة، تتغير اللوحة، وبالتالي، يتغير موضوعها، وإن كان عنوانُها يبقى ثابتا. وحتى في قطار نيويورك الفائق السرعة (المِترو) أو كما يسمونَه (سابنواي) تَجِدُ لوحاتٍ إشهاريةً، وبِجانِبها قصائد شعرية، يقرأها الرُّكّاب، رغْم الازدحام والاكتظاظ، والتدافع بالأكتاف!.. والغاية هي أن يقرأوا الشعر، فيتعودوا على تذوقه، لأنه يشحذ أذهانَهم، ويُزهِف مشاعرَهم، ويُفسح خيالَهُم. وهذا جعلني أُحِسُّ بأن (عقلي وقلبي مقفولان).. إذ كيف يُقبِل الإفرنج على قراءة الشعر في المَدرسة والقطار، وهُم أهلُ عِلـمٍ وصناعـةٍ وتكنولوجية، فيما أتَـخـلّـى، أنا عنه، وهو (ديـوان العرب)؟!.. هل أصبح الإفـرنـجُ أكـثـرَ عروبةً مني، أم أصبحتُ إفرنجيا، دون أن أشعر؟!

وعندما رأى هارونُ تِمثالَ المَلكِ جورج الثالث، يتوسّط الحَديقةَ، جلس على مَقعَد أمامه، يتأمله بإمعانٍ، ويـتـذكـر حروبه الطاحنة، التي خاضها سنواتٍ طويلةً لتشييدِ

العالَمِ الْجَديد، وتوحيد شعوبه. فقالت له الْمُرافقةُ:

- لو كنت تَجْلس على هذا المَقعد في مثل هذه الساعة من الثلاثاء 11 سبتمبر 2001 لَمَا أخطأتْ رأسَك قطعةٌ من أربعِ طائرات، صدمتِ البُرْجَيْن التُّجاريين، اللذين كانا هناك.. أنظرْ قُبالتَك!

أمسك برأسه، متوهِّما أنّ ضربةً آتيةٌ لا مَحالة، ونَهَض بِخِفّة واقفا، كأنّ بالفعل، سقطتْ عليه إحدى القطع، ولَمْ يلتفتْ إلى حُطامِ البرجين، ومن ثَمّةَ لَمْ يَعُدْ إلى الْحَديقةِ ثانيةً!.. ولعل الفضلَ، كلَّ الفضلِ، يعود إلى مرافقته، التي أخذته في قطار مُعَلّق، ليسير به مسافةَ ستةِ كيلومتراتٍ، فيشاهد مَعالِمَ حي (مَنهاتَن) معلمةً معلمةً، على نَهْر (هدسون) في جزيرة (لا تنام، ولا تَهْدأ، ليلَ نَهارَ) إلى أن يَحُطّه القطارُ في حديقة (الغيوم سنترال) ذات الْمِساحة الشاسعة، التي تَمْتدُّ من الشارع تسعةٍ وخَمْسينَ إلى الشارع مائةٍ وعشرةٍ طولا، ومن الْخامسِ إلى الثامنِ عرضا!

في هذا الْحَيِّ، توجد أكبر شركة مالية في العالَم (البورصة) منذ سنة 1920 ومؤسساتٌ تلفزية وإذاعية، ومراكز الاتِّصالات والإعلام، ودور النشر الكبرى، ومَتاحفُ ومَراسِمُ، ومقر الأمم الْمُتحدة...وهناك يُمْكنك أنْ تلاحظ مُفارقاتٍ، لا تُخْطِئُها عينُك: فتشاهد ألْمَعَ الفنانين، من مُمثِّلين ومُغنين ورسامين ونَحّاتين، وأكبر الأدباء والصّحافيين والإعلاميين، مُجتمعين في أفْخر وأفْخم الْمقاهي، والْحانات، والْمَطاعم...وفي الوقت نفسه، تشاهد الْمُدمنين والْمُتسكِّعين والْمُتسولين، يرقدون على الأرصفة، وأنت تتخطاهم بِحَذر وحيطة، كَمَنْ يتخطى الألغامَ الْمَزروعة في الْحُقول...وبين الفينة والأخرى، تلقي بدولار في يد من يتمسّك بِحِذائك، أو يَجْذِبُ سِزوالَك، فيسقط منك، إذا لَمْ تكُنْ مُتحزِّما!

ولكنّ الْمُفاجأةَ التي أذهلته، هي أنّ الْمُضيفة قادَتْهُ إلى مَرْكز الطفل بنيويورك، فاستقبله القَيِّمُ عليه، وجال به أرجاءَ الْمركز، من قاعة السينما والْمسرح، إلى قاعة الْموسيقى، إلى قاعة الألعاب، إلى الْمكتبة...وهنا بيتُ القصيد!.. لقد هالهُ ألاّ يَجِدَ كتابا واحدا بالإنجليزية أو الإسبانية، فكل الكتب بالعربية فقط، والْقَيِّم نفسهُ يتكلم بالعربية الفصيحة، حتى ظنه من أولئك الْمهاجرين، لكنه أمريكي قُحٌّ، أبًا عن جدًّا!..

ولَمّا سأله عن سِرِّ اهتمامِهِمْ بالثقافة العربية للطفل الأمريكي، أجابه باسِما:

- أصغِ إلَيّ!.. عقد فريقٌ دولي من عُلماء اللغة، في السنة الماضية، اجتماعاتٍ متواليةً بإحدى جامعات أنجلترا، وتوصّل، بعد دراسات وإعداد استمارات واستبانات واستقراءات إلى أنّ اللغاتِ تندثر، الواحدة تلو الأخرى، وأنّ في الأخير، ستبقى ثلاثُ لغاتٍ، هي العربية، وأطلقوا عليها (الأمُّ) والصينية والإنجليزية. وبالفعل، فإن دولا، مثل أمريكا، بدأت في تطبيق توصيات الفريق، فعززت تدريسَ العربية بفتح شُعَبٍ ومدارسَ لغير الناطقين بها، وإصدار كتب للأطفال والفتيان بأقلام أدباء أمريكيين يُجيدونَها، ليسوا من أصول عربية، ولا تتناول هذه الكتبُ إلا القضايا العلمية، كالبراكين والنباتات والْحيوانات وسلوكاتِها، بحيث أصدرت لكلِّ مرحلة عمرية صندوقا خاصا بها، كل منها يَحتوي على مئة كتابٍ، بَدْءًا من السنة الأولى في الروض. لا تتضمّن أيةَ معلومات تاريخية أو دينية أو وطنية أو سياسية، فهي علمية وإنسانية مئة في الْمئة!.. بل حتى أبحاث العلماء العرب، الذين يشتغلون بالْمَراكز الأمريكية، تُنجَز باللغة العربية، ثُمَّ تُترجم إلى الإنجليزية من طرف مُختصّين، رغم أنّ العلماء يتقنونَها، وكان بإمكانِهِم الكتابة بِها، لكن السِّرَّ يكمُن في كونِهِمْ إذا كتبوا بلغتهم العربية، سيكونون أكثرَ دقة وصدقا وضبطا للمعلومات، ونقلا لِمَشاعرهم الْحَسّاسة!

وهذا يدل على أن العالِمَ كلما كتب بلغته الْخاصة به، سيكون أكثرَ إفادةً ونفعا، مِمّا لو كتب بلغة الغير، ولو كان يُجيدها. كما أن العالِمَ كلما استعمل لغته، استطاع أن يتطور في ميدانه العلمي والْمعرفي، لأنَّها مرتبطة بتفكيره وقواه العقلية، أما إذا استعمل لغةَ الآخر، فلن يتغير أو يتقدم قَيْدَ أُنْمُلةٍ، لأنه يصبح عبدا في تفكيره لتلك اللغة. حقا، سيتعلم كيف يستخدم آلاتٍ وأجهزةً، كالأنترنيت، والْهاتف النقال، والألعاب الآلية، ولكنّ هذه الْمعرفةَ لن تتطور لكي يبتكر أو يصنع شيئا، أو يأتي بِجَديد. وهذا هو السر في أن العالَمَ العربي لَمْ يتطور بالرغم من استقلاله منذ عقود طويلة، إذ أن الْمُواطِنَ، ولو كان حاصلا على أعلى شهادة بالإنجليزية أو الفرنسية، فإنه يرتكب أخطاء بسيطة، كمخالفة قوانين السير. بينما اليابان بِمُجرد ما ترجَمتْ علومَ الغرب إلى لغتها، قفزت إلى الطليعة، لأنّها حازت أهَمّ النظريات

العلمية، وطورثها في نطاق لغتها، ثُمَّ انطلقت تبني نفسَها بنفسِها. إذن، النظريات العلمية والتربوية العالَمية تؤكد أن تعلم لغة الآخر ضروري للانفتاح عليه، والاستفادة منه، على أن يُحَوِّل كلّ ذلك إلى لغته، ليصبح جزءا منه وهذا ليس جديدا على العالَمِ العربي، فقد مارسه العلماء في العصر العباسي. ويَجْدُر الذِّكر أنَّهم ترجَموا ما يُفيدُهُم في الطب والْجغرافية والعلوم والفلسفة، وحتى في الأدب، مثل كليلة ودمنة، أما ما يضر عقيدتَهم، وينشر الفُرقة بينهم فأداروا له ظُهورَهم!

أكّد هارون كلامه قائلا:

- أوافقك، سيدي، الرأيَ، فالْعالِمُ الْمُستَقبلي الْمَهدي الْمَنجرة يقول: «لَمْ يثبت في التاريخ البشري أنّ أمة تطوّرث وتقدّمث بدون لغتها»!

وعندما تـوجه يوماً ما إلى مدينة والْث ديـزني، وجد كلَّ قصص «ألف ليلة وليلة» و«كليلة ودمنة» وقصص العصر العباسي، مُجَسّمةً في أزوقة، وهي التي تَحظى بالعناية، ومُشاهَدة الكبار قبل الصغار لَها: علاء الدين والْمِصباح السحري، علي بابا والأربعون لصا، بساط الريح، حذاء الطنبوري...فكأنه سافر إلى أمريكا ليشاهد الْحَضارة العربية، فلو بقي في وطنه، لَمَا لَمَسَ ولا عرف شيئا منها!

[2]

قالث لي مُرافقتي ضاحكةً:

- لن تكتمل زيارتُك لِهَذا العالَمِ الْجَديد، إلا بِجَوْلة ولو سريعة في (عاصمة الْجريـمة(!

سألتها في دهشة:

- وهل للجريـمة عاصمةٌ عندكم؟!

أطلقث ضحكة:

- هكذا يَخلو لَهُمْ أنْ يُسمّوها!.. إنّها (واشِنْطُنْ) التي تشهد جرائمَ القتل في جِهَتِها

الشرقية، لتفشّي الفقر والبطالة والإدمان على المُخَدِّرات!.. لكنني سآخذك إلى شارع (بَنسِلفانيا) لتشاهِدَ (البيتَ الأبيضَ) والمَتاحِفِ والأنصابِ التّذكارية. وتُحكى عن (البيتِ الأبيضِ) قصص طريفة، تُعَوِّد المُواطنين على احترامه؛ فالحَجَر الذي بُنِيَ عليه، جيئَ به من (أسكتْلَندا).. ولِكَي يُضفوا هالةً من القُدسِيَّةِ، تَعَمَّدوا أن يستغرقوا في بنائه سبعَةَ أعوامٍ، لأن عدد (سبعة) يستبشر به البشرُ، فالله أنشأ الكونَ في سبعة أيامٍ، وهيكل سليمانَ في سبع سنواتٍ. كما شاؤوا للكونغريس أن يَنالَ تقديرَهُم، فنصَبوا عليه تِمثالا ضَخما، يقومُ على ثلاثةَ عشرَ عَمودا، تُمَثِّل ثلاثَ عشرةَ ولايةً، كانت اللبنة الأولى في تشييد أمريكا. بالإضافة إلى الأحصنة، ونسر الدولار، والنواميس، كناموس العهد القديـم الذي يوعِدُ بالجَنّة.. ولكي يكتمل المَشهد، لا توجد في واشنطن بناية تعلو على تِمثال الكونغريس!

Telegram:@mbooks90

وواشنطن، هي مدينة التماثيل والمَتاحف والحَدائق، التي تُشَكِّل ذاكرة الشعب الأمريكي، فَهُناكَ مركز جون كينيدي للفنون، والمَتحف الوطني للهنود الحُمر، والمَتحف الوطني للتاريخ، ومتحف الفضاء، وحديقة النحت، ونُصب جنود فيتنام...!

[3]

أحسستُ، وأنا أحاورُ أصنافا من الأمريكيين، المهاجرين من ذوي أصول متنوعة، أنّهم أتَوْا هذه الأرضَ من أجل بداية جديدة، وحياة أخرى، لا علاقة لَها بِحياتِهم الأولى في بلدانِهم الأصلية. وهذا شكل من أشكال الوطنية، التي لا يُمكن تَحديدُ هويتها، وتضاريسُ شَخصيتها. ولا تُصَدِّقوا الذين يعودون منها ليصِلوا الرَّحِمَ بأهاليهِم، لأنّهُم يُذَرْذِرونَ الكثيرَ من التَّوابِل على أحاديثهم وحكاياتِهِم، حتى تظنَّهم عائدين من دار النّعيم!.. والسؤال الذي تبادر إلى ذهني:

ـ ما الذي يَجعل أمريكا أمريكا؟

معظم مُواطني العالَمِ الجَديدِ أحفادُ المهاجرين من بلدان حضارية، كالعراق وفلسطين ولبنان، والهِند والصين وباكستان والمِكسيك واليونان... فكيف أداروا لَها ظهورَهم؟!.. الثقافة الحالية في أمريكا تتطور بسرعة، ليس لديها

جاذبية وجدانية، إذ لا يُمكننا أن نعتبرها ثقافة مشتركة. فهل هم أمريكيون لِمُجَرّد أنّهم يستهلكون السلعَ والبضائعَ نفسَها؟.. أو لأن عِماراتِهم العِملاقة تلتهم الغاباتِ والمساحاتِ الخَضراءَ؟.. هل هذا كافٍ ليوحّد بين عقولِهم وأفئدتِهم ورُؤاهم، ويَشُدّهم إلى قضية ما؟.. أو لأنّهم يَمتلكون ترسانة حربية قوية، يسيطرون بها على البَرّ والبحرِ والجَوّ، وما فوق الأرض وتَحتها، ويَقبضون أرواحَ وأنفُسَ الأمم والدول (المارقة)؟!.. أم أن أسئلتي لا جَدوى منها، تَجاوزها التاريخ، ولَمْ تَعُدْ تُشَكّل هَمًّا وهاجسا أساسيين في ذاتية الإنسان المُعاصر، ما يدل على أنني ما زلتُ أنتمي إلى أهل الكهف؟.. لكنْ، علينا أن ننتبه إلى حالاتٍ شاذة، تبرز بين الحين والحين، نعجز عن فَكّ ألغازها، كإطلاق النار على العشرات في المِهرجانات، أو في المُؤسسات التعليمية، أو في المُنتَزهات والمَكتبات والقاعات السينمائية، أو كإضرام الحَرائق في الغابات والمَنازل والمَطاعم والخَمّارات والأحياء، أو الإصابة بأمراض عصبية ونفسية، كالاكتئاب واليأس، أو الانتِماء إلى مُنَظّماتٍ إرهابية...

وأستشهد بقولة المؤرخ مايكل كاتز، الذي صاغها في ثلاثة عناصرَ رئيسيةٍ، مُكَوّنةٍ لأزمة المُواطن الأمريكي: «بطالة الشباب، التوجُّس من الشرطة، الاغتراب...»! فإذا قضينا على العنصرين الأولين، فكيف نقضي على الثالث، المُتجذر في الشعور واللاشعور، وفي الوعي واللاوعي؟!

حقا، لا ننكر، أن أمريكا (أرض الأحرار) كما يصفونَها لأن حرية التفكير والتعبير، والتعايش والتسامح، وكافة الحُقوق الفردية...كلها قواعد وأعراف تنهض عليها، بل تَحظُر الصراعاتِ الإثنيةَ، ولَهجةَ خطاب الكراهية، التي تولّد العدوانية، وفي المُقابِل، تُحَفّز على التنويعات والتلوينات الثقافية، وتُحاول أن توجِدَ عناصرَ مشتركة، لتؤلف بين هذا المَزيج البشري.. وأهَمُّها كيف تَخلق الثقةَ بين رجال الأمن والأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية؟.. وكيف تقضي على الحَساسية المُتَوارثة بين البيض والسود على مدى قرون؟.. غير أن ما تُحاوله وتطمح له شيء، والواقع شيءٌ آخرُ. فبالرغم مِمّا تُوَفّر من مظاهر الترف والتسلية، والفَخفخة والعيش الرّغيد، فإن مواطنيها مازالوا يفتقدون الغذاء الروحي والنفسي والوجداني؛ فالوجه المَبشور، يكاد ينعدم تَماما، والصداقة البريئة، لا تراها إلا في الحُلم أو الخَيالِ، والقلب غير

مطمئن، كأنّ صاحبَه يعيش في غابة، وإن كنتَ تسمع، وأنت تسأل أحدهم:

- كيف حالك، صديقي؟

فيجيبك عابسا:

- جيد جِدًّا جدًّا!

ولا تلحظ الابتسامة، سوى في الحانات والمَواخير وملاهي القمار، لأنّها تَخلب جيبيك، فلا تنصرف منها إلا وأنت تَحبو على رُكبتيك. ولقد زيّن لي شيطاني، عليه اللعنة، ذاتَ جُمُعةٍ، أن أكتشف هذا العالَم، فدخلتُ أحدَها، وهالني كثيرا ألاّ أجدَ مَخرجا آخرَ، غيرَ الذي دخلتُ منه، كما لا توجد نوافذُ، ولا شبابيكُ، ولا واجهة زجاجية، ولا ساعة حائطية، كيلا تُذَكِّر خارجَهُ، ولا تُحِس بِمُرور الوقتِ الذي تُزجيهِ عَبَثا، كأنّهم يُنَوِّمونك بـ(الفن) لتستنزفَ ما في حوزتك من مال، فلا تغادر المَلْهى، إلا وجيباك فارغان يُصَفِّران، دون أن يتصدقوا عليك بابتسامةٍ، ولو صفراءَ.

ولا أغالي في حديثي، لأن هذه الحالةَ كثيرا ما تقع لذوي العَمائم، الذين وهبهم الله نِعَماً شتى، ينفعون بِها الشُّقر، ويَمنَعونَها عن بَني جِلْدَتِهِمُ السُّمر!

وبِما أنني أحسستُ بالفخ، قبل أنْ أقعَ ضحيةً بين فَكَّيْهِ، وخشيتُ على جيبي أن يفقد حرارتهُ، ولَّيتُ وَجهي نَحوَ البابِ خارِجا، لأنْجُوَ بِنقودي، وكيلا يَخسِبوني من المغفلين، وإن كانت ملامِحي لا توحي بِهِم. فشعروا بي عبر الشاشة، وطَوّقوا المَلْهى، مُغلِنينَ حالةَ الاستنفارَ القُصْوى!

وفَجأةً، لا أدري من أين انبعثت لي شابةٌ شقراءُ في مِيعةِ الصِّبا، طليقةَ الشعر، كاشفةَ الصدر والذراعين والساقين أيضًا، فاعترضت طريقي بِخِفّـةِ الفراشة في غَنَج ودَلالٍ، وهي تَمُدُّ لي دولارا لامعا:

- هـاي، صديقي!.. تعـالَ، إلى أين تـريد أن تذهب، وأنت لَم تُجَرِّب حظك السعيد معي؟

لَم أردَّ عليها، وبقيتُ كالتمثال مُسَمَّرا في مكاني أتأمَلُها من فوقُ إلى تَحتُ، ومن

تَخِتُ إلى فَوْقُ، فاغِرًا فَمي كـالْبُهلـول!.. ثُمّ جذبتني من يدي، فألْفَيتُ نفسي خلفَها، تضع قطعة الدولار في فَتْحة الآلة، وتنقُر الزِّر، فتنزل منها خَفسون دولارا بسرعة فائقة، فيما كانت تضحك، وتَخِتُك بِحِجْري، الَمرة تلو الأخرى. فَجَمعتُ الْحُصَيْصَةَ كلّها، ووضعتُها في جيبي، وشكرتُها باسِما، طَلْقَ الُمحَيا (كما نكتبُ في الإنشاءِ) وأنا أخطو ظَهرا إلى الوراء، حتى وجدتُني أعثر بِجِزوٍ يقتفي سيدتَهُ، فأقع بطولي على الرصيف. وكأنّ صاحبتي استيقظتْ من غَفلتها، فانطلقتْ تنادي عليّ غاضبةً كالَمجْنونةِ أنْ أعودَ لأُكملَ اللعبَ، فقلت لَها مُداهِنا:

-اِهدئي ولا تقلقي، سيدتي؛ فاليومَ جُمُعةٌ، لن أحتفظ بالْخَمسين دولارا، إنّما سأعْمَل بنصيحة أحَدِهِم، فأوزعها على الُمدمنين..!

وبالُمناسبة، تَلْحظُ آلاتِ الْقِمار، تَحتلّ كلَّ مكانٍ، مثلَ مَخادع الْهاتِف عندنا، بل توجد حتى في (بيوت الأدب) شَرّف اللهُ قدرَكُم؛ فأنت تقضي حاجتك، وفي الوقت نفسه، تلعب في الآلة الُموازية لِقَعدتِك، بِمَا تشاء من النقود، أي تُفرِغ جيبك وبطنك في آنٍ واحدٍ. ولكيلا نَغمِطَهُمْ حقَّهُم، فإنّك تَجِد رَفًّا صغيرا، جَنبَ الآلةِ، يَحمِل مَجلاتٍ وجَرائدَ للتّلْهِية والتّسلية، في حالة ما إذا تبخّر كلُّ ما تَحمِلُه معك، أو لَمْ تكنْ من أنصار لُعْبةِ الْحَظ، وهي كلمة مهذبة لِمُصطلح (القِمار)!

وأذكر ما قرأته لشاعر في تعريفه لأمريكا، فيقول في إحدى أغانيه:

ما هي أمريكا بالنسبة لي؟

اِسم، خريطة، عَلَم

كلمة معينة وحرية

ما هي أمريكا بالنسبة لي؟

قطعة أرض، بيت أعيش فيه، شارع

بقال وجزار، وأناس أقابلهم

أطفال في الملعب، ووجوه أراها

كل الأجناس والأديان

وهذا بالنسبة لي أمريكا..!

الوقت، هناك، هو المال، ولا شيءَ غيرَ النقود، فهي البنزين الذي يُحَركك، وبدونها لا تستطيع أن تعيش دقيقة. والمُعْضِلة أن هذا المالَ، لا يُحَقِّق شيئا كثيرا أو يسيرا من الراحة والطمأنينة النفسية. فضْلًا عن عدم المُساواة في الدَّخل والثروة، ما يُقسّم المُجتمعَ إلى شرائحَ غاضبةٍ، كل منها تغتني على عَرَقِ الأخرى.. وهنا يَكمُنُ اللُّغز!

وهذا الأمر، ليس جديدا، أو وليدَ التطور الطبيعي في الاقتصاد، أو دَخيلا، أو غريبا عن المُجتمَعِ الأمريكي؛ فالتاريخ يُخبرنا أن نيويورك (أمستردام الجَديدة) كان فيها «الدولارُ أكثرَ الآلِهة اتباعا» أيامَ زَماني، لَمّا كان سكانُها «لا يزيدون عن ثلاثة وعشرين ألفَ ساكنٍ» ومازال طبعا!.. كما كتب المُؤرخ الدكتور الطاهر أحمَد مكي.. واليومَ، يزيد سكانُها عن تسعةَ عشرَ مليونَ نسمةٍ!

ولقد قال لي أحدُهم، لقيته صدفة:

- إنني أغبطكم جدا، لأنكم تتمتعون بحياتكم، رغم أنكم ترتعون في مستنقع الفقر والجَهل والمَرض...!

تصدقتُ عليه بابتسامة كاذبة، لأنني أدَّخِر رصيدا كبيرا من الابتسامات، منذ طفولتي، ورثـتُها عن عَمّتي، وأجبته:

- حقا ما قلتَ، صديقي!.. لكنْ، ألا يَجْدُرُ بكم أن تَجدوا حَلًّا ثالثا، فتُوَفِّقوا بين حاجاتكم المادية والنفسية؟!

هَزّ رأسه موافقا، دون أن يَنبِس بشَفةٍ، وأشار إلى مَحلاّت، تعرض واجِهاتُها أنواعا من المُسدسات الآلية، والبنادق السريعة الطلقات، منها المُرَخَّص وغير المُرخَّص، فَفَهِمتُ من إشارته الذكية، كأنه يسألني:

- كيف تلتمسُ منا هذا التوفيقَ بين المادي والنفسي، وهؤلاء يشجعون على العنف والقتل؟!.. (هذا في أخطر المدن؛ سان فرانسيسكو، وشيكاغو ومدينة ريسيفي...)!

والحَقيقة أن هناك حرية فردية واجتِماعية، تُلغي كلّ الهَذَر والثّرثراتِ المَجّانية، التي تُثار في المُناسبات المُختلفة. فهناك، تستطيع أن تفعل ما تشاء، دون حسيب أو رقيب، ولا أحَدَ يتجرّأ على مُحاسبتك أو مُعاقبتك، ولو بالنصيحة والمَوعظة الحسنة، والكلمة الطيبة، إلا نفسك وضميرك، لأنّك تتصرّف في إطار القانون والآداب العامة، ولا تُلحِق أذى بغيرك.

فالسّيدانِ المُحترمانِ (الحَسيب والرقيب) أطال الله عُمُرَهُما، وأدامَهُما على شعوبنا، لا يوجدان إلا في العالَمِ العربي. كما أنّ لا أحدَ يلتفت إليك، أو يستغرب منك، إلا إذا أتيتَ بشيءٍ مُنكَرٍ، مُعاكِسٍ له مائةٌ في المِائةِ. وهنا، أشير إلى إحدى اللحظات الحَرِجة (بالنسبة لي) التي عشتها في غابة (كوكابونسي).. فقد ساقتني رجلايَ إليها لغرضٍ عِلمي صِرْفٍ (سأخبركم عنه في ما بَعْدُ) ظُهْرَ يَوم مع صديق من سوريةَ، فوجدتُها مثلَ غابتنا، مُؤثّثةً بأشجار البلوط والصنوبر، وعِوَضَ قُرودِنا، تستقرّ فيها سناجِبُهُم. وما أن توغّلنا فيها قليلا، حتى أوقفني صديقي خَجولا، وأمسك بذراعي، مَسَكَةَ الشُّرطةِ:

- لا شيءَ هُناك، لنرجعْ.. حالا!

سألته متعجّبا:

- أتوجد فيها حيوانات ضارية، أو مدمنون لائِذونَ بِها؟!

رَدّ مُتَفتِما مُضطربا:

- لالا!.. إلى أين ذهب عقلك، ياصديقي؟!.. لن تروقَك وكفى.. ستعود في حينك جارِيا ونادِما!

نزعتُ ذراعي من مَسكَتِهِ القويةِ، ثُمّ ربّتّ على كتفِهِ:

- لا عليك، صديقي، ما دامت خاليةً من الحيوانات والمُدمنين، فسأتابع سيري، لأن الأمرَ يَهُمُّني كثيرا، ثُمّ أعود إليك في الحين!

لَمْ أُفصِحْ لَهُ عن غايتي من هذا الإصْرار، وأنا أهتدي بِخريطةٍ وسرتُ

حوالَي عشرَ دقائق، حتى أشرفتُ على جدول هادئ، تَجْري مياهه متلألئةً، فتعكس أشعةَ الشمس الْمُتسرِّبة من أغصان الشجر الكثيفة. وأرسلت عيني، أمسح بِهما الْمَكانَ، من أقصاهُ إلى أقصاهُ، فرأيتُ على ضفتي الْجَدول كُتَلاً بشريةً من الرجال والنساء والأطفال عُراةً، ظننتُهم في الأول أنصارَ طرزان، مازالوا على قيد الْحَياة. فتوقفتُ لَحظةً، أتأمّل هذا الْمَشهدَ الْمُذهِش، وفي الْحينِ، أفكر في ما ينبغي فعله؛ هل أخطو إلى الأمام، أم أعود أدراجي؟.. لكنّ إبليس غرّر بي، لأنني لَمَحْتُ نُهودا متدلية كالتفّاح، كما أغرى اللعينُ والديَّ آدمَ وحَوّاءَ، فتقدّمتُ بِضعَ خطواتٍ مضطربا، مُشوشَ الذهن!.. وإذا بعيونِهم تُركّز نظراتِها الثاقبة عليّ، تستفهِم بذهولٍ أمرَ هذا الرّجلِ (النّشاز) الذي يرفض الْعُرْيَ، والتّصريحَ بِكل مُمتَلكاته الْجِسْمِية، وإنْ لَمْ يُطْلَبْ منه دَفْعُ ضرائبَ عنها، لأنّ صَلاحِيّتَها وفعاليّتَها انْتَهَتا منذُ سنواتٍ، وتنتظر نَقْلَها إلى مَطْرَحَةِ الْمُتلاشِيّاتِ. وظَهَرتْ لي وُجوهُهُمُ الْمُشرَئِبّةُ نَحْوي مُتشابِهةً، ذكورا وإناثا، كبارا وصغارا، كأنّ مِخْرَطةً شكّلتْها في قالَبٍ مُحَدّدا!

في تلك اللحظة، تذكرتُ ما قرأته في «مذكرتي عن سفرتي إلى فاس لأجل الدراسة سنة 1338 هِجْريةً 1919 ميلاديةً» للأستاذ الراحل أمْحَمّد بَنّونَة، إذ يقول عندما وصل الوفدُ الطلابي التّطواني إلى إحدى القرى في سفح جبل زَرْهونَ:

- «وما أصبح الصباحُ، حتى كنا فوق ظهور دَوابّنا ننحدِر إلى النّهر لتشرَبَ البغالُ، وكانتِ الشمسُ قد طلعتْ، فما أن وقعتْ أعيننا على النهر حتى رأينا عَجَبا لَمْ يكنْ يَخْطر لنا على بالٍ، ولا سَمِعْنا به من أحدٍ، ولا ظننا أنه يقع في بلاد يسكنُها الْمُسلمون. فقد رأينا سكانَ القرية قد نزلوا إلى النهر يعومون رجالا ونساء عرايا لا يسترون عَوْراتِهِمْ، فهم كأنّهم وحوش، ولَمْ يأبَهوا بنا ننظر إليهم، بل الْحَقيقة أننا غَضَضْنا أبصارَنا عن هذه الْمَصائب. وأغرب من ذلك أنّهم لا يُحِسّون بِما نُحِسّ به من برد، كما أنّهم لا يشعرون ما نشعر به نَحْن من الْحَياء والْحِشمة فلقد تعوّدوا البرد، كما تعودوا قلة الْحَياء» صفحتا 30 - 31.

وإذْ ذاك، تنفّستُ الصُّعَداءَ، فقلتُ بيني وبين نفسي:

- إذا كان إخوتي مُتحررين في ذلك العهد البائد، قبل الأمريكيين والأوروبيين،

فلماذا لا أتحرّر في عصر العولمة والتكنولوجية؟!.. ثمّ ماذا سأُخفي عنهم، فما يوجد عندي، مثله عند البشرية جمعاءَ، فقراءَ أو أغنياءَ، ضُعفاءَ أو أقوياءَ؟!

لَمْ يَسَعْني، كي أتخلّص من نظراتِهِمُ النفّاثةِ، فأصبح عاديا بينهم، إلا أنْ أخلَعَ ملابسي كلّها، الخارجيةَ منها والداخلية، وأقف عاريا مثلما ولدتني أمي، وأحاول أن أشبِكَ يدي حول شيئي، لكنهم ظلوا يتفرّسونني، ويتبادلون أسئلة وأجوبة عني، ما أخجلني وحيّرني وأربكني، ففهِمتُ أن خِتاني ميّزني عنهم. جريتُ نَحْو الجَدول، وقفزتُ إلى مائه البارد، وأنا أضع كَفًّا أمامي، وكَفًّا ورائي. وإذْ ذاك، غَضُّوا البصرَ عني، حين صِرْتُ أحدَهُمْ، فـ«من عاشر قوما أربعين ثانيةً، صار منهم»!

وحينَ عدتُ إلى صديقي، رأى رأسي مُبلّلا بالماءِ، وأطرافَ ملابسي، وفَرْدَتَيْ حِذائي مُلطّختين بالوَحلِ، فسألني مُتَفتِما، ووَجْهُهُ مُحْمَرٌّ:

- أسبحتَ في الجَدول؟!

أجبته مترددا:

- أجل!.. وكيف لا أسبح فيه، ومياهه عذبة صافية كاللؤلؤ المَنثور؟

قاطعني قلقا مُتوتِّرا:

- اِفْهَمْني، أنا لا أقصد ماءً، ولا لؤلؤا منثورا أو مَنظوما، إنّما...!

وصَمَتَ، فبقيتْ (إنّما) عالقةً في حَلْقه، لا تريد أن تتزحزحَ من مكانِها، لتمرَّ كلماتٌ أخرى، تنتظر دورَها، فأردَفْتُ لأُسعِفَهُ، قبل أن يختنقَ أو يَشْرَقَ، والابتسامة ترتسم على شفتي، لأنني أدركتُ ما يُفكِّر فيه، ويشغل بالَهُ:

- لالا، لِتَهْدَأْ وتَطْمئِنَّ نفسُك، لَمْ أجد أحداً هناك، سوى السّناجبِ!

[4]

سيداتي، سادتي:

باديَ ذي بَدْءٍ، أشكركم على دعوتكم لي، قصدَ المُساهَمة في تصحيح بعض

الأخطاء في تاريخكم، التي لَم تقتصر عليكم، بل امتدث إلى عقول كل الشعوب والأمم في العالَمِ، بما فيها البلاد العربية. وكيلا أُطيلَ، فإن السيد مدير المَكتبة، يعْلمُ أنني سافرتُ يوما إلى غابة (كوكابونسي).. ولَمّا عدتُ منها، سألني مُتعَجِّبا:

- ما الذي دفعك إلى زِيارتِها، وهي غابة نائية عن نيويورك، لا توجد فيها سوى الأشجارِ والجَداولِ والسناجبِ...؟

فكان جوابي، أنِ انتظِرْ مُداخلتي، فَمِنها يأتيك النّبأُ اليقينُ!

قبل الرَّحّالة الإيطالي (كْريستوفَر كْلومبوس) بِحَوالَي ألفِ سنةٍ، اكتشف المَغاربةُ العالَمَ الجَديدَ (أمريكا).. وبطبيعة الحال، فإنّها لَم تكنْ تَحمِلُ هذا الاسمَ، لكنْ، هناك قرائنُ تدلُّ عليها. ففي عهد النبي يوسف عليه السلام، حين كان حاكِمًا على مصر، نزل بِها الكنعانيون (الفلسطينيون) فرفضهم الفرعونُ (أخمَسْ) وطردهم منها، فقصدوا العراق، ثُمّ الجَزائرَ، فالمَغربَ، وأقاموا على أرض خصبة، تُسَمى اليومَ (فِجيج) أي (الوادي الواسع) لأنّهُم دخلوها من هُناك، فوجدوا الجَوّ والطبيعةَ متشابِهَيْنِ بين هذه المِنطقة ومصر والعراق. ومِمّا نقلوا معهم (فنّ النحتِ والنقش) حتى إن علماء الآثار عثروا على رسم لإله فرعوني، وعلى كبش بقبعة، منحوتٍ في جبل (تضرازت) يُطابِق كبشَ عَمون مصر.. كما تدل كُوَمُ الصخور (الكَراكير) على البداية الحَقيقية لتشييد الأهرام، قبل المِضريين. ونفهم من رسالة منقوشة بـ(الحاج ميمون) أن الوندال، وهُمْ قبائلُ جِرمانيةٌ، غَزَوا المَغربَ سنة 430 ميلاديةً بزعامة (جَنسريق) ففرّ سُكّان (فِجيج) في سفن من شاطئ (طيطخ) بِمدينة (الجَديدة) إلى أن بلغوا أمريكا، وظلوا سنواتٍ في غابة (كوكابونسي) مُختفين، وما زالت هُناك نقوشٌ على الصخور، تؤرّخ لوصولِهِم. وهي الدليل على أن المَغاربةَ، عرفوا أمريكا، قبل المُكتشفين الآخرين، سواء من العرب أو من الغرب. ويؤكد هذه المَعرفةَ كُلٌّ من المُؤرخين والباحِثينَ والمُحَقّقينَ واللُّغَويِّينَ وعُلَماءِ الآثارِ: عبد الهادي التّازي، مُحَمّد الفاسي، باري فيل، جونْ كْلا ذجيز، نوزمانْ طوطين، وَيثواتز شترانْد، نْستاس الكْزملي، والدكتور جيفريس، وغيرهُم كثير...وذهبوا بعيدا، حينَ أعْلنوا أنّ كْريستوف كلومبْس أشار في كتاباته إلى أنّ أبحاثَ الفيلسوف أبي الوليد بنِ رُشدٍ، والرّحالة

أبي الرَّيحان البيروني، هي التي أَلْهَمَتْهُ بوجود أمريكا. وعندما نزل بها وتَجَوَّل في رُبوعِها، لاحظ في لَهَجاتِ الْهنود الْحُمر كلماتٍ عربيةً، وفي عاداتِهِمْ مظاهرَ الْحَياةِ العربية، بل عثر على أصنافِ مَزْروعاتٍ، لا توجدُ إلا في أراضي الْعالَمِ العربي!

وإذا زرتُمُ (الْمَتحفَ القوميَّ العربيَّ) بِمدينةِ (ديـتـروث) بولاية (مـيـتـشغان) فسَتجِدونَ تِمثالاً لشابٍّ مغربي، يُسَمّى (مصطفى الزَّمّوري) كما ستجدون في (مكتبة الْكونغْرِس) ثلاثةَ مؤلفاتٍ عنه، بصفته شخصيةً عربيةً هامَّةً في التاريخ، جَمَعَتْ بين الشُّعوبِ العربية والغربية والْمِكْسيكية والأمريكية. ففي سنة 1521 نَضَبَتْ مياهُ نَهرِ أُمِّ الرَّبيعِ، فأصيبتْ مِنطقةُ (دُكّالةْ) بالْقَحْطِ والْجَذبِ، ما عَرَّضها للمَجاعة، وبالتالي، أصبح سُكّانُها سِلْعةً وبِضاعَةً في أيدي القراصنة والنَّخّاسين البرتغاليين، يُسَوِّقونَ عبيدا وإماءً إلى أروبا وأمريكا. ومنهم الزموري، الْمُلقب بـ(إِسْتِبانَيكُو) الذي ملكه التاجر (أندريس ديدورانتس).. فسار به في السابعَ عشرَ من يونيو 1527 إلى أسطول القائد بانفيلو ديرفاييز، الذي أبْحَر مع سِتِّمئةٍ من الرجال إلى (فْلوريدا) عبر الْمُحيط الأطلسي. وفي 1528 تَحالَفَتِ الأمراضُ والْمَجاعةُ والأمْواجُ العاتِيةُ، فتسلّطت على رجال الأسطول، وقضتْ عليهم، بِمَنْ فيهِمْ قائدُهُمْ، ولَمْ يبقَ مِنهُمْ إلا ثَمانِيةٌ وأربَعونَ. وفي 1529 بقي منهم خَمسَةَ عشرَ رجلا، فضلا عن الزموري. وفي 1535 بقي أربعة على قيد الْحَياة، هُمْ: الزموري، ألنسو ديكاستيو، دوارنتس، كابيزا ديفاكا.. فساروا على الأرجُل عَبْرَ نَهر الْمِسيسيبّي، حوالَيْ أربعة آلاف كيلومتر، إلى أنْ أسَرَتْهُمْ قبائلُ الْهنود الْحُمر، وأطلقتْ عليهم اسْمَ (أبناء الشمس) بل اعتبروا الزموري (نبيا) لأنه عالَجَهُمْ من أمراض مستعصية. ثُمّ سيفرّ مع أصدقائه الثلاثة إلى الْمِكْسيك سنة 1536.. وفي 1539 سيعود الثلاثة إلى إسْبانيا، فيما سيمْكُثُ الزَّمُّوري هُناكَ!

في هذه اللحظة، تَمَلْمَلَ مديرُ الْمَكتبةِ، وقام من مكانه، ثُمّ قاطعني بابْتِسامةٍ خفيفةٍ قائلا:

- أشكرك على هذه الْمَعلوماتِ التاريخية، التي لَمْ تَكُنْ غافلةً عن ذهني، بل إنّ بلادك الْمَغربَ أولُ دولةٍ في العالم اعترفتْ بنا!

لكن، أريدك أنْ تعلمَ أنّ كلَّ ذلك يبقى مَركونا على رُفوف مكتباتنا، وليس له أيُّ

تأثير في سياستنا، القائمة على الْمَصالِحِ الشخصية، والْمَنافِعِ الْمادّيّةِ، واللبيب بالإشارة يفهم...!

* * *

4

الدُّرُّ الثّمين في أخبار الصّين !

[1]

تردّد كثيرًا، قبل أن يُسافرَ إلى الصين، لأنّ اللغةَ شكّلت له أكبرَ عائقٍ في هذا السفر، غيرَ المَسافةِ الطّويلة؛ فالصينيون يَعَضُّون على لغتهم بالنّواجِذ، لا يتكلمون إلا بِها، ويرفضون أنْ يَنْطِقوا بغيرها، كما يَنْدُرُ أن تلقى في طريقك من يتكلّم لغةً ثانيةً، سوى الإنْجليزية، وحتى هذه لا يستعمِلونَها إلا مُضْطَرّين!

لكنْ، يشاءُ القدرُ الجَميلُ أنْ يزور مصرَ، أمَّ الدُّنيا، فيعثر في سوق تِجاري كبير بـ (القاهرة الجَديدة) على مَحَلّ خاصّ بالأجهزة الرّقمية. ولَمْ يلْفتِ انتباهَهُ فيه، سوى آلةٍ مستطيلةِ الشكل، في حَجْمِ الكَفِّ، أُلصِقَتْ بِها ورقة، كُتِبَ عليها: (مترجِمٌ فَوري، كتابي وصوتي) فاستغرب من العرض النّادر، ولَمْ يُصَدِّق عينيه، حتى تقدّم من البائع، سائلا بلهْفةٍ:

- سيدي، ما دور هذه الآلة؟!.. هل هي لعبة أطفال، أم هاتفٌ خاص، أم زينةٌ فقط؟!

أجابه البائع باسما:

- لا، ليست كذلك!.. إنّها تُترجِمُ اللغاتِ، فعلًا، بالكتابة والصوت، فإذا قابلتَ سائحا أجنبيا، مثلا، يَجْهَل العربيةَ، فيمكنك أن تُجْري معه حوارا، أو تُجيبه عن سؤاله، عبرَ هذه الآلة الرقْمية، فهي تترجم من وإلى العربية كلَّ لغات العالَمِ، ماعدا لغةَ (جزيرة واق واق)!

قال البائع، وأطلق ضحكةً عاليةً، ففَهِم صاحبُنا أنه يَمْزح فقط، فشاركه ضحِكَهُ ومُزاحهُ. ولن أطيلَ عليكم، فقد اقتناها منه في تلك اللحظة، بالشيء الفلاني، قبل أن

تطير من يديه، وحمَلها إلى المَغرب، ثمّ صانَها في خزانته، عَمَلاً بالمَثل السائر: (خَبِّئ دِرهَمَكَ الأبيضَ إلى يومِك الأسوَد)!.. فكانت، ونَفعُها له لا يُنسى (دِرهَمَهُ الأبيضَ) طيلةَ رحلته إلى الصين، ورحلاته إلى دول أعْجَمِيّة، ولولاها لَضَلَّ طريقَ عودته منها إلى وطنه، فيكفي أنّ الحَيّ الواحدَ في عاصمتها (بِجين) يوازي مدينةً مغربيةً بأحيائها وأسواقها وضواحيها كاملةً، فكيف سيخرج منه، إذا قُدِّر عليه أن يتيهَ في شوارعه (قبل أن يظهر الحاسوبُ اللّوحة، والهاتِف الذّكي، اللّذان يُمكِنُ أنْ يقوما بالترجَمة حاليا)؟!

ولِهَذا كانت هذه الآلةُ العَجيبةُ (مِشكاةٌ فيها مصباحٌ) ينير بَصَرَهُ وبَصيرتَهُ، أينَما حَلّ ورَحلَ في مدن الصين. كما علّمته كيف يصوغ الجُملَ الدّالة، ويُحَضِّر الأسئلة الدقيقة، والتركيزَ على الكلمات والعِبارات المُناسبة، بدَلَ الفضفاضة التي تَحتمِل معانِيَ شتّى. فَمَرّةً، سأل شرطيا:

ـ أين يقع فندق جين...؟

أجابه ضاحكا، وهو يضع يديه على كتفيه، كأنه صديقه:

ـ حَتمًا، يقع في البحر...!

ففهِمَ صاحبنا أنّه كان عليه أن يستعمل (فعلًا) يحمل مَعنى واحدا، لا شريك له: أين يوجدُ، مثلا.. وهكذا...(وإنْ كان لِهَذا الفعل معانٍ أخرى، لكنه قَلّما يُستعمل لَها) ومن ثَمّةَ أصبح أكثرَ دقّةً في توظيف اللغة، وفي الحِوار والمُناقشة، وفي السلوك والمُعاملات...وكل ذلك، بفضل الآلة الرقمية، وإنْ كان صَوتُها ضعيفا، لا يُفهَم نُطقُه بسُهولةٍ!

ولَمّا كان الشيءُ بالشّيءِ يُذكَرُ، فإنّ سلطةَ الصين تُحاوِل، منذ سنوات، توحيدَ اللغات في لسان مشترك، لأن لا أحَدَ يستطيع أن يَحسب عددَ لَهَجاتِها لكثرتِها، ودرجة الاختلاف بينها أعلى بكثير من درجة الاختلاف بين اللغات الأوروبية. كما أن في الصين خَمسا وخَمسين أقلية عرقية، والكثير منها تشترك مع دول المِنطقة في الجُذور الثقافية واللغوية. غير أن المَجموعة العرقية (هان) التي تُشكل تسعين

في الْمائةِ من السكان، ولَها من اللهجات حوالي ألف وخَمسمائة لَهجة، كلها نابعة من اللغة الصينية، تعمل على تصفيتها تدريجيا، كيلا تغذي الشعورَ بالانفصال، أو تتذرّع بحقوقِها اللغوية. فالصين تسعى إلى البناء الوطني، الذي يرتكز على اللغة الْمشتركة، وإن كان هذا الأملُ نراهُ بعيدًا، إنّما بالنسبة لسياستها الثابتة، تراه قريبا!

ولِهَذا فرضتِ اللغةَ الفصيحةَ في وسائل الإعلام والْمؤسسات والْمدارس، وحَظَرَتْ توظيفَ اللهجاتِ في الأشرطة والْمسلسلات التمثيلية، وفي البثّ التلفزي، إلا في حالات قليلة جدًّا. أمّا الآلة الرقمِيةُ التي اقتناها صاحبُنا، فإنّها تتماشى مع السياسة العامّة للسلطة الْمَركزية، ما جعله يلقى احتراما وتقديرا لَدى كلّ من قابَلَهُمْ، وخصوصا طلبةَ وأساتذةَ الْمُؤسسات التعليمية

بِـ(بجين) الذين يُفَضِّلون الفصيحَ على العامّيَ!

[2]

- بجينْ تُرَحِّب بالْعالَمِ!

قابلتني هذه العبارةُ بباب الْمَطار، الذي صُمّمَ على شكل (نَجمةِ البحر) فدفعني فُضولي إلى أنْ أسألَ مُوَظّفا:

- عُذْرا، سيدي، هَلاّ تُجيبني: لِماذا يَتّخذ الْمَطارُ هذا الشكلَ؟

إرْتسمتْ على شفتيه ابتسامة خفيفة، وأجابني:

- إنّ الصين تأملُ، في الْمستقبل، أنْ تُيَسّرَ التواصلَ بين الْمُسافرينَ من كل أنْحاءِ الْعالَمِ، ولنْ يَتِمّ لَها ذلك إلا عبرَ أضلاع النّجمة، التي تؤدي إلى الْمَركز، بالسير مسافةً قصيرةً على الأقدامِ. ويُمْكِنُك أنْ تلحَظَ هذا التّصميمَ في الطّراز الْمِعْماري للقصور والْمَتاحِف والْحدائق التي ستزورها، أيْ نُحاولُ أنْ نَقْرِن الْماضي بالْحاضِر، ونستفيد من تاريخنا الغني، وحضارتنا العريقة، بل ومن أساطيرنا الْخِصبة؛ فنحنُ لَمْ نتطوّر إلا لأنّنا نُغَرْبِل تُراثَنا ونُنَقّيهِ، ونُثري لُغَتَنا الفصيحة، ونُحافظ عليها. وسترى بأمّ

عينك هذه الأضلاعَ، حتى في المَحطّة الطرقية، التي تُعتبر الأولى في العالَم، والمُفضية بيُسرٍ إلى قلبِ العاصِمةِ بجين!

اِبتسمَ لي الحَظُّ، حين دلّني سائقُ سيارة الأجرة على فندق في منطقة (تشيائمن) لأنّها، أولا، مركز العاصمة، تعِجّ بالحركة، وكل ما فيها يكتسي جاذبية وسحرا، من مَحلات التكنولوجية الحَديثة، ومكتباتٍ ومطاعمَ ومقاهٍ، وأسواق تِجارية. وثانيا، لا تبعد عن مَحطة قُطَيِّر المَدينة (المِترو) إلا بثلاثِمائة متر. وثالثا، يضم الفندق غرفا تقليدية على الطراز الصيني، ستائر نوافذها مزينة برسوم الحَيوانات والورود والزهور الأسيوية، الفاقعة الألوان، والتماثيل والصور القديمة للصين وشخصياتِها عبر العصور، كالأباطرة. فكنتُ في هذا الجَو، أتَملّى العاصمةَ نَهارا، وأحضنها ليلا، لِحَدِّ أنْ ظهر لي أنني تَحوّلتُ إلى صيني، بقامةٍ قصيرة، وعينين ضيقتين!

وسيبتسم الحَظُّ أكثرَ، عندما تُخبِرني المُضيفة أن المَدينة الأثرية (المُحرّمة) قريبة جدا، يكفي أن تسير على قدميك مسافةَ عشرِ دقائقَ من الفُندق. وأكّدتْ لي أن زيارتي لَها، ستغنيني عن الصين كلها، يكفي أنّها تَحتوي على مليون تُحفة. وهذا شجعني كثيرا على البدءِ بِها، لأنّها تَختصر كلَّ تاريخ الشعب الصيني المعماري والفلاحي والصناعي والعقائدي والفكري والثقافي والفني، وأُطلق عليها هذا الاسمُ، لأنه كان (يُحرَم) دُخولُها إلاّ الإمبراطور..!

ولَمّا دَخَلتُها من بوابة (ميريديان) انبهَرتُ كثيرا بِروعة بناياتِها المُزخرفة، وجدرانِها العالية، فتِهتُ بين قصورها الفخمة، وحدائقها الغَنّاء، وأبراجها الضّخمة.. حتى إنّني أحسستُ بالزّمَنِ يعود بي إلى سنةِ بنائها 1406 وأنا ألِجُ قاعاتِ قصر الإمبراطور، فهذه قاعة العرش، وتلك قاعة الألفة والعلاقة الحميمة (واللبيب بالإشارة يفهم) وهذا مَعبد، وتلك مَحكمة داخلية...وكلها مزينة بالرخام الأبيض وبِماءِ الذّهب.. دونك ما يُحيط بالقصر من أشجار السّرْوِ والصّنَوْبر والنّباتاتِ المتنوعةِ الأشكال والألوان والتحف الوطنية، كالتنانين السابِحَة بين الغيوم...!

ومن هذه المَدينةِ، قصدتُ (معبدَ السّماء) وهو أكبر منها بأربع مراتٍ، من شرقه إلى غربه 1700 متر، ومن شَماله إلى جنوبه 1600 متر. لكنه يشبهها في بناياتِها

وحدائِقِها. ولقد شُيِّد، كما يظهر من اسمِه، ليتوسّط الإمبراطورُ بين الأرض والسماء، كي يكون الحصادُ جيدا، كلَّ عام. وتوجد به قاعةُ الصلاة، وقاعة طقوس الصوم، وقاعة المَناسِك، وقاعة التوبة...وغالبية سقوفها وأركانِها تَميلُ إلى الأزرق، لون السّماء. وخارجه، يوجد صخر ضخم، يقال إنه يردد صدى الصوت لدى السّماء، كي تسمع دعاءَ الإمبراطور، فتلبي طلبه، كما يقدم لَها القرابين!

وفي هذا المَعبد، بل في كثير من الحَدائق، كما حُكِيَ لي، تُقامُ كلَّ خَميس (أسواقُ الزواج) لـ(اقتناء) شريك (العيش والحَياة) لا شريك (الحُب والجِنس) لأن هذه العلاقة جاري بِها العمل، وقائمة بين الصينيين بلا (زواج) أي حَقٌّ طبيعي، ولكنّ المُشكلة تكمُن في قلة (رفقاء أو رفيقات الروح)!.. وغالبا ما يتولّى الآباءُ هذه العمليةَ، عندما يبلغ أبناؤهم ثلاثين ربيعًا، فيخشون أن يظلوا عانسين، يعيشون فرادى في شققهم، ما يدفعهم إلى الانتحار، أو الإصابة بأمراض نفسية، وعقلية!

يعرِضون فِلْذاتِ أكبادِهِمْ على (الخاطبة) نَظيرَ مبلغ مالي كبير، أو يلتجئون إلى معبد السماء والحَدائق الأخرى، ليُلصِقوا على لوحاتٍ خاصّةٍ (معلوماتٍ عن أبنائهم وبناتِهِم) مثلا:

- السِّن: 42 سنةً.

- القامة: 162 سنتمترا.

- الوزن: 70 كيلو.

- المَظهر: مقبول.

- الجَمال: أنظُر الصّورة، واحكُمْ بنفسك.

- الشخصية: حنون ونشيط وجدي.

- السلوك: مستقيم، لا يدخن، ولا يرتاد الحاناتِ، إلا في الأعياد!

- المُيول: صائد جُزذ (الجُزذ رمزٌ للحظ الجَيّد والسّخاء)

- الحالة: مُطَلّق.

ـ المُستوى التعليمي: حاصل على الإجازة في الحساباتِ.

ـ المِهنة: مساعدُ مُحاسبٍ.

ـ الأجرة: 2663 يوان ـ يعادل 400 دولار.

كنت أتَهَجّى هذه المَعلوماتِ، وأحيلُها على آلتي لتترجِمَها لي، ما جعل أحدَهُم يتلصّص عليّ، فالتفتَ إليه، والابتسامة لا تفارقني، وإذا به يغتنمها فرصةً فيسألني:

ـ هل أنت إنجليزي أم أمريكي...؟

أجبته على اللوحة:

ـ لا هذا ولا ذاك!

ـ إذن، أنت إيراني أو تركي!.. أليس كذلك؟!

ـ لا، أنا مغربي!.. بلدي عربي مسلم، تفصله عن إسبانيا مسافةٌ بَحريةٌ، تُقدّر بِخَمسة عشرَ كيلومترا!

ـ هل أعجبتك ابنتي؟.. لا مانعَ لدي أنْ تُهاجِر معك!

ـ أجل، سيدي!...إبنتك جَميلةٌ، بل غايةٌ في الحُسن والجَمال، لكنني متزوّج، ولي ثلاثة أبناء كبار!

ـ لا تنس أنّ المسلمين يتزوجون بأكثرَ من امرأة!

ـ عُذرا، لقد نسيتُ حقًّا!.. لكنْ، لو كنتُ كلما سافرتُ إلى دولة، أتزوّج بامرأةٍ، لأصبحتُ أمينا عاما لِهَيأةِ الأمم المُتحدة!.. وداعا، وحَظًّا سعيدا لابنتك، ولأبناء الصين كافّة!

وغادرتُ معبدَ السماء، دون زوجة ثانية، تتأبّطُ ذراعي!

ذاتَ صباحٍ، استيقظتُ باكرا، كعادتي دائما، فانصرفتُ خارجا من غرفتي، ونزلتُ

إلى بَهو الفندق، فباغـتـتـني الْمُضيفةُ النشيطة (تشوشي شي) بسؤال:

ـ صباح الْخَير، هل تريد أن تكون رجلا؟

إنْدَهَشْتُ من سؤالِها الْمُفاجئ، وتبادر إلى ذهني، لأوّل وَهلةٍ، أنّها تريدني، وإلاّ ما معنى أنْ أكون رجلا من عَدَمِهِ؟!.. وكيف رزقني الله ثلاثةَ أولادٍ، إنْ لَمْ أكُنْ رَجُلا؟!.. بل كيف أثبِث لَها رجولتي وفُحولتي، ونَحنُ مازلنا في بداية الصباح، لَمْ نتناولْ فَطورَنا بَعدُ، أي لَمْ نزوّد الْمُحرّكَ بـ(الوقود)؟!

لَمْ أجِد ما أُجيبُها به، فقفز من فَمي هذا السؤال بصعوبة، والدّهشة ترتسم على وجهي:

ـ وهل أنا أنثى لأكونَ رجلا؟!

ضَحِكتْ مني نافيةً عني الأنوثة:

ـ طبعًا، أنت رجلٌ، ومَنْ يـنـكر ذلك؟!.. تكفيك اللحية الْمُتـدلية، لكنني

أعني: (هل ستزور سورَ الصينِ العظيمَ؟) لأن زعيمنا ماوتسي تونغ يقول: «من لَمْ يصعدْ سورَ الصين، فليس رجلا حقيقيا»!

ولَمْ يـكـنْ في برنامَجي، لـذلك الـيـوم، أنْ أزورَ السورَ، فـقـلـتُ لأثـبـتَ لَها رجولتي، وحُبّي الكبير لذلك الزّعيم:

ـ أجَل، أريد أنْ أكونَ رجلا حقيقيا، اليومَ لا غدا، كما يريد ماوتسي تونغ، لا كما أريد أنا!

لَمَست خدّي بإبهامِها لَمسا خفيفا، كأنّها تداعبني، هامِسةً:

ـ يُمكِنُك أنْ تُحقّقَهُما معا، الأولى صباحا، والثانية مساءً!

جَحَظتْ عيناي لدَعوتِها الْخَفية:

ـ يالك من نـبـيـهةٍ!.. إذنْ، لـنـلـتـقِ حـوالي السابعة، فـأنا لَمْ أتناول (وجبةً صينيةً) منذ أنْ حطّتني الطائرة!

اِمتَطيتُ الحافلةَ، فقطعت بي ساعةً ونصفا من بِجين إلى السور، وما أنْ أشرفتُ عليه، حتى عادتْ بي ذاكرتي إلى ما قاله لي المُوظّف في القطار، لحظةَ وُصولي:

- إنّ الصينيين يستفيدون من حضارتِهِمُ الأصيلةِ في تشييد بلادهم، فالسور يتّخِذ شكلَ التّنّين، وهذا الحَيوان له حضور قوي في الأساطير الصينية، التي خلّفها الأوائل ليستغلّها الجيلُ الحاضر!

ترجّلتُ من الحافلةِ، فوجدتُ قُبالتي لوحةً معلّقةً، تُوَفّر للزّائر مَعلوماتٍ رئيسيةً عن السور وتاريخه، وفَهِمتُ منها أنّ طوله سبعة آلاف كيلومتر، أي المَسافة بين مدينتي (البصرة العراقية، والدار البيضاء المغربية) بِعُلُوِّ ثمانيةِ أمتارٍ، وعَرْضِ ستةٍ. تتوسّطه أبراجٌ، وتَماثيلُ ضَخمة، وثُكُناتٌ ومَمَرّاتٌ، كان يَحرسها ويُراقِبُها حوالَيْ مليون جندي، ودامتْ حقبةُ بنائه من القرن الرابع قبل المِيلاد إلى السابعَ عشَرَ الميلادي، إلَخ!

ثُمّ حجَزتُ تذكرتي بأربعين (يوانٌ) ما يُعادل دولارين ونصفًا، ولَمّا توجّهتُ إلى مَدخَل السور، هالَني أنْ أرى اكتظاظا به، كأنه يوم الحَشر. وبعد التّزاحُم بالأكتافِ، والعَشراتِ من لفظة (سوري) أي (عُذرًا) أو (عَفوًا) وإنْ كان لا يوجد أيُّ مواطنٍ (سوريٍّ) بيننا!!

سِرتُ في مَمَرٍّ طويل، ما يقرُب من ألف ومائتي مترٍ، فتوقّفتُ، وأنا ألهَثُ، وأُسِرُّ في نفسي:

- إلى أين تقودني رجلاي؟!.. هل إلى أرض المَغول، أم بلاد التُّرك، أم إلى ياجوج وماجوج.. ؟!

إنتبهتُ إلى جدران السور، فلاحَظتُ فَتَحاتٍ للمراقبة، وإطلاق النار، وقَذْفِ الأحجار على المُتسلقين. تعلوها أبراجُ الإنذار، لتنقلَ تحرّكاتِ المُعتدين في حينها، بإطلاق الدخان نَهارا، وإيقادِ النار. كما تَتَخلّلُهُ مَمَرّاتٌ ضيقةٌ، تُعَدُّ أساسيةً في دَحر المُهاجمين. وتتجَلّى قيمتُها في المَثَلِ الصيني: «لو يَحرُسُ السورَ جندي واحد، لا يستطيع عشرةُ آلاف مُهاجِمٍ أنْ يَخترقَه»!

وأرسلتُ عيني يَمينا ويَسارا، فرأيتُ سلسلة من الْجبال الشاهقة

والْمُنخفضة، والأودية الغائرة، والغابات الكثيفة، فتساءلتُ مستغربا:

- كيف طَوَّعَ هذا الشعبُ الْجِبالَ الصُّلبةَ والْمُنعرجةَ لبناء السور؟!

وإذا بي أسمَعُ أستاذا من كلية اللغة العربية ببجين، يشرح لوفد من الطلبة اللبنانيين، الغايةَ من بنائه:

- إنّها مُعجِزةٌ حَقا أنْ يُسَخَّر ثلاثون مليون عاملٍ لِهَذا الْغَرض، لكنّها الْحُروبُ الطاحنة والْمُتتالية، التي أنْهَكتْ هذا البلدَ، فأراد أباطرتُه أنْ ينتهوا منها، ويتفرّغوا لتشييد الْعُمران والإنسان...!

وهنا نطق طالب من الوفد مُؤيِّدا:

- حقًّا ما تقول، سيدي، فلو بنينا، نَحنُ كذلك، سورا بيننا وبين إسرائيل لانتهت مُعاناتُنا القاسيةُ معها، وعشنا في سلام دائم، منذ سنوات طويلة!

إبتسمَ الأستاذُ مُوافقا:

- أجل، هذا عينُ الْعَقل!.. لا بُدّ من سور، يضع حَدا للحرب بينكم وبَين الإسرائيليين!

لَمْ أشعر بنفسي إلا وأنا أتدخّل قائلا:

- إسمَحوا لي أنْ أتطفّل عليكم، فأدلي بدَلْوي في هذه الْمَسألة. أنا مواطنٌ عربي مثلكم، وتَهُمُّني حالة لبنان وفلسطين: ما الأفضل في نظركم، بناء السور أم الإنسان؟

نظر إلَيّ الأستاذ، وسألني متعجّبا:

- وما علاقةُ السور بالإنسان؟!

- يقول عالِمُ الْمُستقبلياتِ، الْمُفكّر الْمَغربي الْمَهدي الْمَنجرة: «عندما أراد الصينيون أن يعيشوا في أمانٍ، بنوا سور الصين العظيم.. واعتقدوا بأنه لا يوجد من يستطيع تسلُّقَهُ لشِدَّة عُلوِّهِ... »!

قاطعني طالبٌ بعينين متلألئتين:

ـ هذه حقيقة لا غُبار عليها، كما قال لنا الأستاذُ قبل قليل..!

ـ اِصْبِرْ لَحظةً، ولا تَكُنْ عَجولاً، بُنَيّ!.. يزيد مُفَكِّرُنا قائلا: «ولكنْ، خلال المِئة سنة الأولى، بعد بناء السور، تعرّضت الصين للغزو ثلاث مرات، وفي كل مرة لَم تكُنْ جَحافلُ العدو البرية في حاجة إلى اختراق السور وتسلقه، بل كانوا في كل مرة يدفعون للحارس الرشوة، ثُمّ يدخلون عبر الباب. لقد انشغل الصينيون ببناء السور، ونسوا بناء الحارس!.فبناء الإنسان يأتي قبل بناء كل شيء، وهذا ما يَحتاجه طُلاّبُنا اليومَ»!

إذن، نستنتج أن بناء السور، دام حوالي ألفي سنةٍ، دون نتيجة، بينما بناء الإنسان، لا يتعدى عشرين سنةً، ونتيجته إيجابية.. لا أريد منكم أن تؤيِّدوني أو تُعارضوني، إنّما أنْ تُفكِّروا في هذه القَوْلةِ لرجلٍ كبيرٍ، رُبّما سيرحل قريبا إلى اليابان ليفيد أبناءَها (الآن، رحل إلى العالَمِ الآخر، ولا أدري ماذا يفعل هناك؟!).

في مساء ذلك اليوم، عدتُ إلى الفندق مُرْهَقًا، فوجدتُ تشوشي شي تنتظرني بالباب. وما أن رأتني حتى هَرَعت إلَيّ تُهَنِّئني:

ـ لقد أصبحتَ، منذ هذا اليوم، رجلا حقيقيا، فَهنيئا لك، أيُّها العربي!

اِبْتَسَمتُ قائلا:

ـ هذه رجولةُ ماوتسي تونغ، فأين هي رجولتي أنا، أيتها الصينيةُ الخفيفةُ الظلِّ؟!

جذبتني من يدي ضاحكة:

ـ تعال معي، عندما نعود من المَطعم ستجد رجولتَكَ في غرفتك!

أدخلتني إلى مطعمٍ فَخمٍ، فتحَسّستُ جيبي، قبل أنْ يُستنزَف، لأنني لَم أعُدْ أثِقُ في الأسيويين، بعد واقعة اليابان، التي حكيتها في كتابي الأول «أن تُسافر».. أوقفتُ تشو، هامِسا في أُذُنِها:

- عذرا، سيدتي الجَميلة!.. لقد نسيتُ حقيبة نقودي في الغرفة، فهل يُمكنني أنْ أعود لأحضِرَها حالا؟

تأبطتْ ذراعي، وجذبتني إلى الداخل قائلة:

- لا داعِيَ إلى ذلك، فلدي من الْمالِ ما يكفي!

- الْحَمد لله، هذا من رضى الوالدين!

إتَّخذنا رُكنا قَصِيًّا، كي نتجاذبَ أطرافَ الْحديث بكل حرية، ودون أن نَجلُبَ الانْتِباهَ. وبعد حين، أتانا النادلُ، فطلبتْ منه حساءً، نشربه في البداية، ثُمَّ لَحما مقليا مع أرزا!.. وبِمَا أنني أتناول كلَّ شيء، أي لا أفضل طعاما على آخر، منذ صِباي، فإنني لَمْ أعترِضْ على طلبها، أو أستفسرْ عن مُكوناته، لأن الْحَساء، كما ظننتُ، مُحَضَّر من الْخُضَر، أو من فواكه البحر، أو من اللَّحم، إمّا من البقر أو الديك الرومي أو البط، أو من العدس. والْحقيقة أن الْحساء كان لذيذا جدا، يُسيل لُعابَك، ويَجْعَل شَفَتَيْك تتلمّظان، فيندلق اللعابُ على ذَقْنِك، حتى إنني طلبتُ من النادل أن يُحضر لي صحنا آخر. والأهَمُّ من كلِّ ذلك، أنّني لنْ أؤدِّي (يوانْ) واحدا، فتشوشي شي والعشاء بالْمَجّان!

سألتني باسِمةً:

- ما رأيك في نساء الصين؟

فاجأتني بِهَذا السؤال، وما كنتُ أريد أنْ تطرَحه، فتردّدتُ طويلا ومتلعثما في الإجابة عنه:

- لا أدري.. بِماذا أُجيبك!

وصَمَتتْ بُرهةً، ثُمّ أردفتْ:

- الْحَقيقة.. لَمْ يُحَرِّكْن فِيّ ساكنا!

إحْمَرّ وَجْهُها، فسألتني مضطربةً:

- أطلبت امرأةً، ولَم تستجِبْ لك؟

- لا، ليس كذلك، فنساء الصين متـفـتِّحاتٍ وسَخِيّاتٍ، يَجُذن بكلِّ ما لديهنّ!.. لكنني أقصد أن هناك تذميرا منهجيا لِعُنصُري الذكورة والأنوثة، منذ عهد الزعيم ماوتسي تونغ، وثورته الثقافية، إذ لَم تَعُد أيّةُ جاذبية في المَرأة الصينية. ويكفي أنْ تنظري إلى جسدها، فكل عناصر الأنوثة من نُهودٍ وساقين، تكاد أنْ تكون مُختفيةً، إنْ لَم تكُنْ منقرضةً، وأصبحت مثلَ الرجل تَماما. حتى أنّ الصيني، عندما يريد أنْ يعبّر عن حُبِّه لصاحبته، يقول لَها: أحبُّك من صَميمِ (ذِهْني) لا من صَميم (قلبي) ذلك أنّ الحُبّ، أصبح عقلانيا، أكثرَ منه وجدانيا...!

وفَجأةً، صرخ أحدُ الزبائن ألَمًا، فـالـتـفَـتُّ أستـطـلع صَرْخـتـه، وإذْ بي أراهُ يضع يـديه على بطـنه، وهو يتوجّع، وتَحلّقَ حولَه الروادُ، فظننتُ أنّ أحَدا لَكَمَه في بطنه لَكمةً قويّةً، ولَمّا سألتُها عنه، أجابتني شاحبةَ الوجهِ:

- ما كنا لندخلَ هذا المَطعمَ!

تساءلتُ في دهشة:

- كيف تـقـولـيـن هذا، وأنت التي أتـيـتِ بي؟!.. أأنا الصيني أم أنت؟!

ردتْ قائلة، وهي تُشيحُ بوجْهِها عني:

- يبدو أن الرجل لَم يَختَمِلْ لَحمَ الثُّعبان!

صحتُ فيها بعينين جاحظتين:

- أيقدّم المَطعمُ لَحمَ الثعبان؟!

أجابتني عابسةً:

- عَجَبا لك، ياصديقي!.. كيف لَم تشعز به، والحَساء الذي أغجبك مُنَسّم بذَنَب الثعبان؟!

ووجدتُني بدوري، أضع يدي على فَمي، وأتقيّأ كلَّ ما رشفته من حساء على

صدرها، رغم أنني لَمْ أحِسّ بِمَغَصٍ!.. فانتفضتْ كالمَلسوعةِ، وأخذتْ تَمسح صدرها وملابسها بالمَناديل الورقية الشفّافة، المَرّة تلو الأخرى، حتى كَوّنتْ منها كومةً فوق المائدَةِ، والنُّدُل يضحكونَ مِنّا...!

ثُمّ قُمتُ من مكاني، وغادرتُ المَطعمَ، وهي تتعقّبني بِخُطى مضطربةٍ وتُرَدّد متسائلة:

- ماذا أصابك؟!.. لَمْ نتناولْ قطعا أو شرائحَ من لَحمِ الثُّعبان، فتنزعج وتتقيّأ عليّ، إنّما شربنا، فقط، حساءً مُنَكّهًا بذَنَبِهِ!.. وماذا لو أخذتُكَ صيفا إلى (يولين) فترى الناسَ يأكلون بنَهَمٍ لَحمَ الكِلاب، ظَنًّا مِنهُمْ أنّها تَجلُب الحَظَّ السّعيدَ؟!.. بل ماذا ستفعل، لو تناولتَ معهم بيضا مسلوقا في بول الأطفال، لأنّها في المُعتقدِ الشعبي تُجري الدّورة الدّموية؟!

صِحت فيها حانقا:

- كفى هَذَرا لا طائلَ منه، فأنا أُدركُ أنّ «الصينيين كان عليهم أنْ يعتادوا أكْلَ ما لا يُؤكَلُ» كما قالتِ الكاتبةُ البَلجيكيّةُ (آميلي نوثومبْ) في سيرتِها الذّاتية.. لكنني تَهَوّرتُ، ولَمْ آخُذْ حَذَري!

- وأنا نَصيحتي لك أن تتعوّد التّأقلُمَ مع البلد الذي تسافر إليه!

لَمْ أرُدّ عليها، وبقيتُ واضعًا يدي على بَطني، وأنا عائد إلى الفندق، القريب من المَطعمِ، فهَرْوَلَتْ وتوقّفتْ أمامي تسألني:

- قل لي: هل سنقضي الليلة معا؟

أجبتُها بعصبية:

- شكرا، لا أريد أن أكونَ رجلا!

- ألَمْ تَعُدْ تُريدُ أنْ نلتقي؟!

- لا، ليَذهَبْ كلٌّ منا في اتّجاهٍ، وليُمارس شَهوتَه على طريقته، وليس بعَزيزٍ أنْ نلتقي، ذاتَ ليلةٍ على سرير، كما تلتقي مِياهِ العالَمِ في البحر!

منذ تلك الليلة، لَم أعد أتناولُ أيّ طعامٍ، حتى أسألَ عن مُكوِّناتِهِ، كيلا يُصيبَني مَغَصٌ حقيقي أو وَهمي، وكذلك الطعام الثقيل على معدتي، مثل أمعاء البقر، وأفخاذ الضَّفادِع، ولَحم البَطّ الدّسِم، الذي يَتخَمُ آكلَه، فلا يستطيع أن يتناولَ طعاما آخرَ إلا بعد مرور أيامٍ. وما بالك بالقطط، التي تستهلك منها أربعة ملايين؟!

وعلى ذكر الثعابين والبط، فإن الْمَتاحف في الصين، تُعاكِس التيار في الدول الأروبية والأمريكية، فَعِوَضَ التُحَف الأثرية، تكثر فيها تَماثيلُ عِملاقة للبطة الذهبية، وأطباقٌ من الفخّار للبط الْمَشوي، عبر العصور، وستصادف تِمثالا للْمُمَثل الْهَزلي العالَمي (تشارلي شابلن) يلتهِمُ بطة بشراهةٍ، فتلتقط معه صورا، دون إذنه، كما ستجد أشكالا من الثعابين والتنانين، اعترافا من الصينيين بتضحيتها بلحمِها الشهي لِمَلْءِ بُطونِهِم، لكنني ما أنْ عَلِمتُ بِالْمَعروضاتِ، حتى قلَبْتُ لِهَذِهِ الْمَتاحف (ظَهرَ الْمِجَنِّ) كيلا تُذكِّرَني بتلك الليلة!

وكانت لي لقاءاتٌ مع أدباء وصِحافيين، خُضْنا فيها ملامحَ وقَسَماتِ الوثبة الصينية، أي كيف حققت هذا النمو الاقتصادي الكبير، وما علاقته بثقافتها التقليدية والحديثة. فأجمع الكلُّ على أن الصينَ، قبل حوالَي أربعين عاما، لَم تكن شيئا مذكورا، لكنّ وفدا مسؤولا منها، زار شركاتٍ أمريكية، ووجّه سؤالا حاسِما لبعض مُدرائها:

- كيف أمكنكم تطويرُ بلادكم؟

وأتى جوابُهم كافيا وشافيا، لا غُبارَ عليه، كأنّه كلُّ ما كان الوفد يأمله من زيارتِهِ لها:

- أدخلنا الْخَيالَ العلمي في تعليمنا!

ولَمّا عاد الوفد الصيني، كان أولَ ما فعله، هو تَحويل خيال الأساطير والْحِكايات الصينية القديمة إلى حقيقة وعِلمٍ، فضلا عن خطواتٍ أخرى، فنشأ الْجيلُ الْجديد على التفكير النقدي، ما جعله يغير الواقع الاقتصادي. ويكفي أن أقول إن الاقتصاد الصيني في سنة 1980 كان أقلّ بكثير من الاقتصاد الْهولندي، واليوم، السؤال الذي

يثار: هل ستتخطى الصين أمريكا، فتصبح قطبا قويا، مُحرّكا للاقتصاد العالَمي؟..
لقد لَمَستُ لدى الصينيين قناعة بأنّ بلادهم (مركز الكون) وهذا من حقهم، مثل أرض الكِنانةِ بالنسبة للمِصريين (أم الدنيا) لأن تاريخهم - أعني الصينيين - يَمتدّ خَمسَةَ آلاف سنة، راكموا خلالَها حقبا حضارية، بينما أمريكا ما زالت في بداياتِها (العالَم الجَديد)!

وفي نظري، لن تقبل أمريكا هذا التّحدي، وسيدفعها، يوما، إلى التفكّير في عرقلة هذا التطور، أو الحَدّ منه، إن لَم تفكر في أكثر من ذلك. فنظرية المُؤرّخ اليوناني ثوسيدايدس تُهَيمن حاليا على العلاقة بين البلدين، وخلاصتها أن «تنامي قوة أثينا، أثار خوف إسبارطة، ما أدى في النّهاية إلى نُشوبِ حربٍ ضروس».. فهل القوتان الحاليتان ستتجنّبان المُواجَهةَ، مستقبلا؟!

* * *

5

إبتَسِمْ.. أنت في الشارقة ..!

لعل المَشهدَ الذي سيبقى ماثِلا بين عينيك، وأنت تتمشّى على رصيف الصيادين، أو شاطئ البحيرة (خالِدِ) هو غروب الشمس خلفَها، وإنْ كان اسمُ مَدينة (الشّارجة) من الشروق، فلولا غروبُ الغزالة، كما يصفها القدامى، لَمَا عرفنا شروقَها، طبقا للقولَةِ الشّائعةِ «تُعرَف الأشياءُ بأضْدادِها».. لكنْ، لا تظنّ أن هذا المَنظرَ الرائعَ، هو كل ما سيفضُلُ بين يديك من زيارتك، ولوْ كانتْ خاطفةً، فهناك في بوابة المَدينة، تستقبلك الجُملةُ الترحيبيةُ، التي تَمحو العُبوسَ من مُحَياكَ، وترسم البَهجةَ بِخُطوطٍ عريضةٍ على شفتيك:

- إبتَسِمْ.. أنت في الشارقة!

وبين شارعَي (العروبة) و(الزهراء) توقفك شجرةُ (الرُّولةِ) السَّخِية، مُشرئبّةً برأسِها إلى السّماء، في شُموخٍ وكبرياء، لتشملك بظِلالِها الوارفة، فتتفيّأ بِها، وتُحِسّ بِحَدْبِها، يسري في أوْصالِك. هي بِمَثابة تلك الجَدّةِ العجوز، التي تَحنو على حَفَدَتِها، لأنّها أعرقُ الشّجر في هذه الأرض، حتى إنّ أحفادَها أقاموا لَها نُصبا تذكاريا، مستطيلَ الشكل، مساحته مئتان وستة وخَمسون ألفَ قدمٍ مُرَبّعٍ، تَحُفُّه ثلاثون(رولةً)!

(الشّارجة) باللّكنةِ الإماراتيةِ، هي (الشّارقة) وبالمناسبة، يُحَوِّرون (القافَ) إلى (جيم) و(الجيمَ) إلى (ياءٍ) فينطقون كلمةَ دجاجة، بـ(دَياية) و(الكافَ جيما) ديج، ويقصدون (ديك) وهذا التحوير يوجد في لَهَجات كل الشعوب. إذن، الشارجة، عفوا، الشارقة هي التي ترعى الفنون الجَميلة، والقيم الثقافية في المِنطقة، ففيها توجد متاحفُ الطبيعة العالَمية، ومَجالاتٌ تراثيةٌ، وبيوت ودور عتيقة وعريقة، وأسواقٌ تقليدية، وقرى وجنائنُ غَناءُ، سيأتي ذكرُها في هذه الرحلة، دون تفصيل مُمِلٍّ،

فتحمّلني، قليلا، سيدي القارئ!

ولن أحابِيَك أو أداريَك، إذا قلتُ إن زيارتي للشارقة كانت مُمتعةً بكل المقاييس العربية والعالَمِية، ويعود الفضلُ فيها إلى شابةٍ فلبينية جَميلة، شاءتِ الصدفةُ الحَسنةُ أنْ ألتقي بِها صدفةً!

وقصة لقائنا من الألف إلى الياء كالتالي:

- في اليوم الثاني من وُصولي، عدتُ إلى غرفتي بالفندق، قبل الثانية عشْرةَ زوالا، وليس (ليلا) !! .. فوجدتُ بابَها مُواربا. توجّسْتُ شيئا غيرَ عاديٍّ، فدفعته برفق، ودلفتُ متسلِّلا، خطوة خطوة، «أُخَفِّف الوَطْءَ... » عملا بنصيحة أبي العلاء المَعرّي، وإذا بي ألَمَح منظفةً جالسةً على حافة سريري، وهي تتصفّح كتابي الأولَ «أنْ تسافر» فتسَمّرْتُ في مكاني، أتأملها باسِمًا، دون أن أتَمَلْمل أو أنبِسَ بكلمة. وكأنّها أحسّتْ بشيءٍ، فرفعتْ رأسَها نَحْوي، وما أنْ وقعتْ عيناها عليّ، حتى ألقتْ بالكتابِ فوق السرير بسرعة البرق، ونَهَضتْ واقفةً، تنفُضُ المكانَ بيديْها، ثُمّ قالت لي مضطربةً بلغةٍ عربيةٍ أبهَرَتْني طَلاقتُها وفَصاحتُها:

- عُذْرا، سيدي، لقد جذبتني صورتك على الغلاف، فأخذتُ أتصفّح الكتابَ، ورقة ورقة، علّني أعثُر على رحلة لك إلى الفلبين !

أجبتها بصوت هادئ، والابتسامة تأبى أنْ تغادر وجهي، كي تُهدّئَ رَوْعَها، فيطمئنّ قلبُها إلَيّ:

- لا عليك، بنيتي ! .. خذي الكتابَ هديةً مني، ما دمتِ تتقنين اللغة العربية ، كما أنّني سأحضر لك من المعرض كلَّ ما تطلبينه من الكتب!

تلألأتْ عيناها فرحا:

- شكرا، سيدي !.. منذ أنْ وَطِئَتْ رجلايَ هذه الأرضَ الطيبةَ، أصبحتُ مولَعَةً بقراءة القصص والروايات والرحلات والسير الذاتية بالعربية.

وصمتتْ قليلا، ثُمّ سألتني متعجّبة:

- ولِماذا لَم تَكتب شيئا عن (الفلبين)؟!.. ألا تستحقّ منك بِضعَ صَفَحاتٍ، مثلَ الدول الأخرى؟!

- الجَواب بسيط، بنيتي، لأنني لَم أسافرْ إلى بلادك الجَميلةِ!.. هل تريدينني أن أتَخَيل رحلةً إلى أرضٍ لَم أحُطّ بِها قدَميّ؟

- إذن، أدعوك إلى زيارتِها، وسأوصي بك أبي خيرا، فلا حاجة لك بالفندق، ولا إلى الدليل، إذ ستقيم في بيتنا بضاحية (مانيلا) ويصحبك والدي (الجابي المُتقاعد مثلك) في جولاتك وخرجاتك...!

- شكرا، بنيتي، على دعوتك، التي سألبّيها حالَما تتهيّأ ظروفي!

وظلت واقفةً، كأنّها تنتظر مني شيئا، فسألتها:

- ماذا بك؟!.. أتريدين كتابا آخر؟!

ضحكتْ بِملء فَمِها، فظهرتْ أسنانُها بيضاءَ كالحَليبِ، وأنا أُسِرّ في نفسي: (آهٍ، أيّتها الحورية ! .. لقد وجدتني في أرذل العمر ...)!

وفي هذه اللحظة سرحتُ مع الشاعر أبي العَتاهية:

بَكَيْتُ على الشَّبابِ بِدَمْعِ عَيْني

فَلَمْ يُغْنِ الْبُكاءُ ولا النَّحيبُ

فَيا أسَفًا أسِفْتُ على شَبابٍ

نَعاهُ الشَّيبُ والرَّأسُ الْخَضيبُ

عَرِيتُ مِنَ الشَّبابِ وكُنْتُ غَضًّا

كما يَعْرى مِنَ الْوَرَقِ الْقَضيبُ

فيا لَيتَ الشَّبابَ يَعودُ يَوما

فَأُخبِرَهُ بِما فَعَلَ المَشيبُ

ولَمْ يُنَبِّهني من إغْفاءَتي إلا صوتُها الرَّقيق:

- إنّ ما أتعجّب منه، هو أنّك لَمْ تُراوِدني عن نفسي، كما يفعل الكثير من كبار السن، ذوي العَمائم!...لو ينطق هذا السريرُ، لَحَدّثك عن أوراق الدولار، التي عُرِضت عليّ مرارا!

سألتُها متعجّبا:

- هل كانوا يَحمِلون كتبا ومَجلاتٍ في حَقائبِهم؟

رَدّتْ دون تفكير:

- لا، لَمْ ألاحظ واحدا منهم، على الأقل، يَحمِل بين يديه كتابا ، أو حتى مَجَلةً!

- هذا هو الفرق بيني وبينهم ! .. كلٌّ منا يَحمِل ما يَهُمّه !.. ليس معنى ذلك أنني ملاك مَعْصومٌ من الخَطَإ. لكن، أنا أومِنُ بالحِكمة المَغربية التي تقول: « كلُّ ثورٍ يَحرُثُ الأرضَ مع قرينِهِ » !

اِحمَرّ وَجهُها خَجَلا، وانصرفتْ من أمامي قائلةً:

- شكرا، سيدي، سنلتقي ثانية وثالثة...فأنت، الآن، بِمَثابة والدي الذي أطمئنُ إليه، وأثِق به!

وضربنا موعدا على أن نلتقي في المَساءِ، فأخذتني إلى (القصباء) وهي قناة مائية، تصل بُحَيرتَي (خالد) و(الخان) بطول ألفِ مترٍ، قِسْتُها بعدد خطواتي. على ضفتيها مطاعمُ ومَقاهٍ ومَحَلاتٌ تِجاريةٌ مَحَليةٌ وعالَمِيةٌ، وحَدائقُ وأماكنُ اللعب والترفيه للكبار والصغار.. وبناياتُها تتجلّى فيها العَراقةُ والحَداثةُ؛ فبقدر ما تُحِسّ بأنك في عُقْر الحَضارةِ العَربيةِ الأصيلةِ، بقدر ما تَجد نفسك مُحَلّقا في أجواء

حضارية أروبية وأمريكية، أي أنك تعيش حياتين، ماضية وحالية، وحضارتين؛ عربية وغربية.فضلا عن مسرح كبير، ومركز (مرايا الفنون) وهو فضاء للأنشطة الثقافية، وقاعةُ (بارجيل) للمعارض التشكيلية، ونافورةٌ تعزف مياهُها الْمُتَمَوِّجة صعودا وهُبوطا، قطعا موسيقية هادئة.. غير أن الْمَنظر الذي يسحر عينيك، ويفتن عقلك، هو (الناعورة الْمُدرّجة) التي تعلو بِستين مترا، إنْ لَمْ تَخُنِّي تقديراتي، لا تَكُفُّ عن الدَّوران، ويسمونَها (العين) وحولَها تَجول القواربُ، ذاهبةً آيبةً، بين البحيرتين !

ويُمْكِنني أنْ أقول، بلا تَحَفُّظٍ، إنّ الشارقة بلد الْمَتاحِفِ؛ فأينَما تُوَلِّ وَجْهَك

فثمّةَ مَتْحَفٌ. وتَخَيّلْ معي، سيدي، مُواطنا، يفتح عينيه كلَّ صباح، فيشاهد من نافذته، أو في طريقه متحفا: كيف ستكون نفسه؟.. عقله وطباعه؟.. رؤيته إلى الْحياة؟.. ألا يُكَوِّن كلُّ ذلك لوحة فنية، تَمتزِج فيها الألوان والأشكال الْجَميلة؟!.. اللهُمّ إذا كان أعمى البصيرة!

ما علينا ! .. بعد أن تناولنا العشاء في القصباء، وعدنا إلى الفندق، قالت لي: غدا، ستملّي عينيك بالْمَتاحف !

وكذلك كان؛ ففي الغد، أخذتني إلى (متحف الفنون) ويَتألف من ثلاثةِ طوابقَ، تَحتوي على اثنتين وسبعين قاعةً، تعرض لوحاتٍ عن العالَمِ العربي في القرنِ الثامنَ عشرَ، لفنانين عالَمِيين، كما تعرض مقتنياتٍ وتُحَفا قليلةَ الوجود. وتوجد بِها قطع أثرية من كل الدول العربية، ومنها الْمَغرب. وكل لوحة أو تُحفة، تَحكي تاريخ بلدها، وما يتميز به من فنون فَخّارية ونُحاسية وزجاجية...ومن هؤلاء الفنانين (دافيد روبرتس) الذي جال الشرق سنة 1838 والفنان (شارلز مايكل) الذي أبدع لوحةَ (السّقاء) حامِلا (جِرابا) وبه نسميه في الْمَغرب، بتبديل (الْجيم كافا مفخّمةً) ثُمّ قصدنا (متحفَ الْحَضارةِ الإسلاميةِ) الذي يعود بك إلى العصرين الأموي والعباسي، فتجد أمّهاتِ الكتب العلمية والدينية، وعُملةَ الدينار والدِّرهَم الفضية، والتُّحَفَ الْمَعْدِنية والطينية والزجاجية، الْمُطهّمة بالذهب والفضة والنُّحاسِ. ومنه إلى الْمتحف الطبيعي، الذي يَحكي بدايةَ الْحياةِ على الأرض، مع عرض مَرْئي لسلسلة الزلازل والبراكين والإعصارات والفيضانات والإنْجِرافات...فالزائر يشاهد

بعينيه، ويصغي بأذنيه، كأنه يعيش تلك الكوارث الطبيعية، أفضلَ من القراءة عنها، أو مشاهدتِها في استطلاع تلفزيّ. عدا متاحف أخرى، يضيق الَمجالُ عن تناولِها، كالمتحف البحري، ومتحف الآثار، ومتحف العلوم، الذي تَحمِلُك (قبته السماوية) في جولة وهمِيّة، عبر الكواكب والنّجوم كما تشاهد في قاعات أخرى، كيف تُنجَز وتعمل الرسوم الُمتحركة، وكيف تُمزَج الموسيقى والأصوث بِهَذِهِ الرُّسوم، وكيف يؤدي الجِسمُ البشري وظائفه...فكأنّ الزائر، خصوصا إذا كان طفلا، يتلقى دروسا بطرق فنية ومغرية. ويستحيل أن ينصرِفَ من هذه الَمتاحف (صِفرَ اليدين) إذ تَخلُقُ فيه حِسًّا جدَلِيًا، فتلحظه يناقش، مؤيدا ومعترضا، تلك الَمشاهد العلمية، والآثار التاريخية...!

غير أن الَمتاحف، وعددها حوالي العشرين، لا تُمَثِّل، فقط، الوجهَ التاريخي والثقافي والعلمي والاجتماعي والسياسي الَحقيقي للشارقة، فهناك الأسواق، كالسوقِ القديم، الذي يوجد فيه أقدم مسجد بالعاصمة، والسوق الأزرق، الذي يَحتضن ستمائة متجر، وسقفه من القرميد الأزرق. وهُما معا يعكسان التطور الحضاري للمدينة، سواء من حيث الَهندسة المعمارية، أو من حيث المنتوجات التقليدية، الُمجَسّمة للفنون الصناعية العريقة.

ولعل آخر ما ستتحفني به هذه الشابة الفلبينية، هو (بيت النّابودة) أو دار عائلة (عبيد بن عيسى بن علي الشّامسي).. إذ قالت لي:

- إن الكثير من الزائرين للشارقة، لا يعرفون هذه الدار العتيقة، وبما أنك تُحِبُّ أنْ تكتشف الأماكِنَ الَمجهولة، فسآخذك غدا صباحا باكرا، قبل أن تُحمى عينُ الشمس، لتتمتّع ببنائها ومُحتوياتِها النادرة!

حين اقتربنا من البيت، ظهر لنا مغلقا، فعرفنا من رجل، كان مارّا من هناك، أنه يَخضع للترميم. لكن مرافقتي، لاحظت أن بابه مُوارِبٌ، وهي فُضوليةٌ مثلي، فدفعته قليلا، ودلفنا إليه، وليكُنْ ما يكون، فكثيرا ما واجهتُ مثلَ هذه الَحالات، وخرجتُ منها سالِما غانِما، وإنْ كانتِ «الَجرّة لا تسلمُ كلَّ مرّة» كما يقول الَمثلُ العربي!

خطونا أولى خطواتنا داخل الدار، فلاحث لنا لوحةٌ مُثبّتةٌ على الِجدار، تشير إلى

سنة بنائها 1845 ليسكنها صاحبُها مع زوجاته الثلاث، وأبنائه السبعة، ويقال إنه كان تاجرَ لؤلؤ، تَمتدُّ تِجارتُهُ إلى الهِند وإفريقيا وأوروبا. وبما أن رجله كانت تعاني من قلة الحَركة، فقد سُمّيَ (النابودة) وهُو اسمُ ذلك المَرض، يطلقونه عليه في الشارقة!.. غير أن ما يلفتُ انتباهك ويُذْهِلك، هو وسائل التكييف الطبيعية، التي كانتِ العائلة تستعملها، لدَزءِ القيظ صيفا، والشقوق في الجُدران والسقوف للتَّهوية، فالحَرّ في هذا البلد لا يُطاق، فترى الضُّعفاءَ، الذين لا يَملكون جِهازَ التّكييفِ، أو إذا انقطع الكَهرباءُ عنهم، وكثيرا ما ينقطع، يلوذون بالمَراكز التّجاريّة الكبرى، التي تتوفّر فيها المُكَيّفاتُ، وتَخْتزن طاقةً كهربائيةً!

وكسائر الدور العربية، تتوسط البيتَ باحةٌ فسيحةٌ، تَحُفُّها جدران عالية، مرصوصة بالأحجَار المَرجانية المُستخرجة من البحر، والأخشاب المَجلوبة من زنجبار، والجريد المَجني من النخيل. ويتألف من طابقين، يَحتويان على اثنتين وعشرين غُرفةً، وقاعة للضيوف، ومكتبةٍ.. وتعرض هذه الغرف، مثلما رأينا من النوافذ، الحِلي والأزياء التـقـليدية، والألعاب الشعبية، والأفرشة

والأواني الخزفية، والصور التذكارية، والكتب والموسوعات والوثائق..!

ليس من السهل أن تلتقي بإماراتي في الشارقة، وحتى في أبي ظبي أو دبي، ولا أن تَجِد من يكلمك طويلا بالعربية...لأن الإماراتيين يشكلون تسعةَ عشرَ في المِئةِ فقط، بينما العرب والإيرانيون ثلاثةٌ وعشرينَ، والغربيون والأسيويون ثَمانيةً وستينَ، ويصل عدد الجنسيات بِها مائتين. فيـلـزمك، إذ ذاك أن تَحمِل معك كتاب«كيف تـتـعـلـم الإنكليزية، بدون معلم، في خمسة خَمسة أيام» كما فعل قبلنا الأديب العربي إبراهيم محمد عبد القادر المازني!

وبالنسبة للشارقة، التي أقمتُ فيها أكثرَ من باقي الإمارات، فإنّ نسبة المُواطنين لا تَتَخَطّى اثـنَي عَشَرَ في المائةِ، أي أنّ هناك خَلَلًا في التركيبة السُكّانية. فمن المُنتظَر أن تندثر اللغة، والهُوية، والتقاليد، وسواها مِن مُكَوِّناتِ الشخصية، وتنقلب إلى مَزيجٍ، لا مَلامِحَ له. فمثلا، هناك تيار التعليم الغربي الذي يدعو إلى تبنّي المَناهج البريطانية، ومدرسة فيكتوريا الأسترالية، والمَدارس الهِندية والأمريكية...وإنْ كنا نرى، بين

الفينة والفينة، أنشطة ثقافية عربية، يَخظى فيها الطفل بِحِصَة الأسد، لأنّ الوافدين الجُدد من آسيا وأوروبا وأمريكا، يَحمِلونَ معهم ثقافاتِهِم وعاداتِهِم، مِمّا يُحصّنُهُم من أيِّ ذَوبانٍ أو اندِماجٍ في المُجتمع الجَديد!

وهؤلاء الوافدون الجُدُد يُسمُّون الشارقةَ (عاصمةَ اللاجئين) فالغالبية تفضل الإقامة بِها، نظرا لرخصها، وسهولة العيش بِها، والثروات تتطور وتنمو فيها بشكل كبير ويسير. وهي من المُدن الخَمس الأفضل للعيش في العالَمِ العربي، تستمد قوتَها من موقعها الجُغرافي، إذ تربط بين الهند والشرق الأوسط، ولِهَذا شَهِدت احتلال البرتغاليين لَها للتحكم في تِجارة التوابل، ثُمّ غزاها الهولنديون، فالبريطانيون...ولِحَدّ اليوم، يوجد بِها (سوق البَهاراتِ) الذي يشكّل رمزا لكل النزاعات والصراعات، التي كانت قائمةً بينها وبين الدول الغربية.

كان بودي أن تَمتدّ إقامتي بالشارقة أكثرَ من خَمسةَ عشرَ يوما، وتلك أمنية الشابة الفلبينية -أيضا، لكي تتحوّل الابتسامة من خفيفة إلى عريضة، لكنّ تأشيرةَ الدخول إلى الإمارة (مُذَيّلةٌ) بالتنبيه التالي: «تَمتّع بزيارتك، وغادِرْ قبل انتهائها، ليتمّ الترحيبُ بك مرّةً أخرى» فآثَرْتُ أنْ ألتزم بِهَذا الشرط، على أنْ أفقد زيارتَها وترحيبَها بي ثانيةً!

* * *

6

باريس.. قبل نهاية العالم بيوم!

لعلّك، قارئي العزيز، ما زلتَ تذكرُ أنّني ضمّنتُ كتابي الثاني في جنس السّيرةِ الذاتيةِ «أنا الموقّعَ أسفلَهُ» عَهْدًا، طوّقتُ به عُنُقي، ألّا أعودَ إلى فرنسا ما حَييتُ، بعد أنْ فقدتُ فيها صَديقتي الإسبانيّةَ (مازغا زبيرا) التي ذهبت ضحيةَ السّرطان. وبقيتُ على وعدي وفيا، لا أزورها البَتّةَ، وإن كنتُ، بين الفينة والفينة، أمُرُّ عبرَ بَرِّها وجوِّها وبحرها إلى دول أخرى، لكنني لا أقضي فيها ولو ليلةً!

غيرَ أنّني، مُؤَخّرًا، أخلفتُ وعدي، ونكثْتُ عَهدي، إذْ ألفَيتُ نفسي، مضطرا لزيارتِها خمسةَ عشرَ يوما، نزولا عند رغبة ابنتي، التي رفضتْ أنْ تسافرَ بدوني. ولقد حاولتُ بكل ما أوتيتُ من ألاعيبِ (اللّفِّ والدّورانِ) و(الإغراءاتِ) التي ينْدَلِق لها اللُّعابُ، أنْ أتملّصَ وأتخلّصَ من هذا السفر، كي أرضيَ صديقتي مازغا في قبرها، وأفِيَ بعهدي لها؛ فأغريتُ فِلْذَةَ كَبِدي برحلةٍ إلى تركيا أو اليونان أو سويسرا، وخيّرتُها بين اليابان والهند وماليزيا، وإنْ كانتْ في آخر الدنيا، بدلَ باريس، فأبتْ أنْ تَذْعَنَ وتلينَ، وبذلك، خرجتُ من المعركةِ صِفرَ اليدين!

أحسّتْ من إصراري وإلحاحي، ومن عروضي المُغرية بأنّ هناك سِرًّا أُخْفيهِ عنها، فتصلّبتْ في موقفها، وحاولتْ، عبثا، أنْ تعرفَ ذلك السّرَّ الذي لم تكتشفْهُ، لِحَدّ اليوم. ولما أعياها تخمينُها، عانَدَتْني بصلابةٍ، وأرغَمتْني، في الأخير، على أنْ أتنازلَ صاغِرا عن قراري، فأرافقَها إلى باريسَ. ولمْ أجِدْ بُدًّا من مصاحبتها، وهل أستطيع أن أرفُضَ لها طلبا، وهي التي تحنو عليّ أكثرَ من أمّها؟!

وهكذا أرضيتُها، وسافرتُ معها، وما لي عن ذلك مَرْغَمٌ، إلاّ أنّني، في الحينِ نفسِه، أرضيتُ صديقتي الراحلةَ، بعد أنْ غافلتُ ابنتي، ذاتَ صباحٍ باكرٍ، وقصدتُ مقبرةَ (بيير لاشيز) حاملا باقةَ وردٍ، مُتَرَحّما على روحها، رغم أنّ لكلٍّ منا طريقةً في

المعتقد (لكِ دينكِ وليَ دينِ) كما قلتُ لها في حياتها. ثم عدتُ سريعا إلى الفندق، ظنًّا مني أنّ ابنتي ما زالت تغِطّ في نومها، فإذا بي أجِدُها في البَهو تنتظرني قلقةً!

بادرتْ تسألني مندهشةً:

- أين سرحتْ بك رجلاك؟!.. ولماذا لم توقظني باكرًا لأُرافقَك؟!

أجبتها مُتلَعثِما:

- تمشيتُ قليلا على ضفة (السِّينِ) لأستنشقَ الهواءَ النّقيّ، وأُمَلّيَ عينيّ بالشفن الذاهبة الآيبة!

وكأنها لم تصدّقني، فعقّبتْ بعصبيّةٍ:

- كان عليك أن تُخبرني بأنك ستتوجّه إلى السّين أو الألف أو القاف!.. لن أقبلَ عُذرَك ثانيةً!

وما كان لي إلاّ أنْ أُوافقَها:

- حاضر، سيدتي!.. والدتك تُسيّرُني في فاس، وأنت في باريس!.. كل منكما تسلّمني للأخرى، كأنني دُميةٌ بين أيديكما!.. أعِدُك، منذ اللحظة، ألّا أُدخِلَ خيطا في سَمِّ الإبرةِ إلّا بإذنِك!

وسكتتْ قليلا، قبل أنْ أُردِفَ متسائلا:

- والآن، أين تُريدينَ أنْ نسيحَ بأرجُلِنا؟

أطرقتْ تُفكّر، ثم قالت حازمةً:

- تخيّلْ معي أنّ نهايةَ العالم وشيكةٌ، ولم يبقَ لنا للعيش فيه إلّا هذا اليوم، فماذا علينا أنْ نزورَ؟!

كتمتُ بيدي ضحكةً عاليةً، ثم قلتُ لها:

- إنّها فكرة مجنونة!.. كيف تفكّرين هكذا، وأنتِ ما زلتِ في مُقتبل العمر؟!.. إذا

سايرتُكِ في هذا التفكير، فما علينا إلا أنْ نحمِلَ نَعشَينِ خشبيَّينِ، ونعود مساءً إلى المغرب، لتُدفَنَ حَيَّين في مقبرة الشهداء!

ضحِكتْ مني قائلةً:

ـ أضغِ إليَّ!.. ينبغي أن نستغلَّ كلَّ دقيقةٍ، فلا نرجِع إلّا ونحن طُفنا باريسَ طولا وعرضا!

أمسكتُ بيدها، وجذبتُها بسرعة، مُغادرين الفندقَ، فأطلقتْ صرخةً، ممزوجةً بالضَّحك الهستيري، ثم هرْوَلنا إلى المحطة، فركبنا قطارا سياحيا، يتَّجِه إلى (نوتردامْ دي باري).. ولَكُمْ أنْ تُطلِقوا العِنانَ لمُخَيِّلتِكُمْ؛ فالحشائشُ الخضراءُ تكسو طولَ السِّكَّة الحَديدية وحواشِيَها

والجُدرانَ التي تَحُفُّها، والنَّفَقَ الطويلَ الذي يخترِقُه القطارُ ببطءٍ، بل حتى الدورَ والقصورَ التي تُطِلُّ على جانبي السِّكة، كأنَّنا نحيا في عالمٍ أخضرَ.. لقدِ انتصر هذا اللونُ الجميلُ الهادئُ بالضربةِ القاضيةِ على كلِّ الألوان، وفاز بجائزةِ الطبيعةِ الفاتنةِ، ولا غَرابةَ في ذلك، فالكلُّ هناك يحتفل بالرَّبيع!

وقفنا في ساحة نوتردام، نتفرّس كاتدرائيةَ سيدتنا العذراءِ بذهولٍ وانبهارٍ قويين، فتوجّسنا خوفا من شُموخِها وضَخامتِها وقِدامتِها، وأصابنا دُوارٌ، لا يقلُّ عن ضربةِ شمسٍ، ثم أصَخنا إلى صوتٍ خافتٍ، ينبعث من داخلنا، يحذِّرنا من دخولها، أو الدُّنُوِّ منها؛ فهي كامرأةٍ عجوز، طاعنةٍ في السِّنِّ، تعاني من (هشاشة العظام) وتقاوم الزمن بصلابةٍ مُنقطعةِ النَّظير، كأنَّها تُردِّد مع السَّالفين:

ـ «ما هي إلّا حياتُنا الدُّنيا نَموتُ ونَحيا وما يُهلِكُنا إلّا الدَّهرُ»!

همستُ في أذن ابنتي:

ـ كيف نخشى سقوطَها، وإن كانت هناك شُقوقٌ في جدرانها، مَسنودةٌ بركائزَ، ونحن نمرّ بدروب وأزقة فاس العتيقة، وغالبية دورها الأندلسية، آيلة للسقوط، ومُدعَّمة مثلَها بركائزَ خشبيةٍ سميكةٍ؟!.. بل ألا تخشين أن يسقط أبوكِبين يديك، وهو يختم السَّبعين خريفا؟!

عانقتني قائلة:

- اِطمئِنْ، يا أبي، وقِرَّ عينًا، فأنا لستُ خائفةً، لا من أثَرِ الزّمان، ولا من غدْرِ الإنسان...!

فجأةً، سمعنا دندنةً خافتةً، فالتفتْنا وراءَنا لنرى شابين يافعين، يُسدِلان شعرَهما الأشقرَ الطويلَ على أكتافِهما، ويرتديان سُترتَين بألوانٍ صارخةٍ، وسروالين ضيقين مُبَرْقَعَينِ، ممزقين في بعض جوانبِهما، كالرُّكبة والفخذ، ربّما للتّهوِئَةِ، وينتعلان حذائين أسودين، فَرْداتُهُما عاليَةُ الكِعابِ، ورُؤوسُها مدببةٌ، يتهيآنِ لعزف قطعة موسيقية في الهواء الطّلق، كما الأمر عندنا في باب (الكِيسَة) بفاس، وساحة (الْهديم) بمكناس، و(جامِع الفِناءِ) بمراكش...فاقتربنا منهما رُوَيدًا رُوَيدًا، وبدأ الزائرون والمارون يتوافدون عليهما، زَرافاتٍ ووُحدانا. وسُرعانَ ما تشكّلت حلقةٌ حولَهما، وانطلق التصفيقُ والتّمايُل، وتلامُس الأكتاف العارية.. ثم انثالتِ الأنغامُ مُنسابةً من القيثار، تملأ الجوَّ طربا، وتهُزُّ البطونَ وتُحرّك الأيدي. وتحوّلتِ الحلقةُ إلى حلبة للرقص، بينما بقينا، أنا وابنتي، متسمِّرَيْن في مكاننا، فاغِرَيْ فمَّينا، لا نَجْسُرُ على الرقص، رغم أنّنا نمارسه ونغني في أعراس العائلة!

وهنا، تقدمتْ مني امرأةٌ في الخمسين باسمةً، وقالت بصوتٍ عذبٍ:

- سيدي، هل تسمح، فتراقِصَني قليلا؟

فاجأني السؤالُ، فأجبتُها مرتبكا:

- طبعا، بكل سرور!

اِستدركتُ موافقتي المتسرّعةَ، فأردفتُ مضطربا، وأنا أنظر إليها مرّةً، وإلى ابنتي مرّةً:

- شَرْطَ أنْ تسمحَ لي كريمتي!

اِبتسمتِ ابنتي، وحرّكتْ رأسَها مُوافقةً:

- تفضّل، مادمتَ تستشيرُني، ولا تتصرّفُ بدون إذني!

مسكتْ يدي، وسارتْ بي إلى الحلبة!

اِقتربتْ مني، وألصقتْ صدرَها البارزَ بي، ثمّ عانقتني، فاستحليتُ العِناقَ والرقصةَ الحارّتين، وتمنيتُهما أن تطولا ساعاتٍ؛ فالمرأة أصغر مني بحوالي عشرين عاما، خفيفةُ الحركةِ، نشيطةٌ، ينبُض جسمُها حيويةً، وعيناها ضاحكتان، وشفتاها باسمتان، وحبّتا لَوز نَهديها تتراقصانِ. ووجدتني أنتهز الفرصة للتلصّص على شفتيها الغَضّتين، اللتين يبدو أنّ لَهُما نُكهةَ الأناناس!

مددتُ ذِراعي اليمنى نحو ذراعِها اليسرى، فتلاقتْ أيدينا، وتلامستْ أناملُها، ثمّ نامتْ كَفُّ يدي في كَفِّها:

ـ أنا أريدك مساءً، فهل تقبل؟!

باغتتني بسؤالها، فأجبتها، وأنا أشير إلى ابنتي:

ـ أخشى الحارسةَ التي تُراقِبُنا!

ـ لا عليك، سأتصل بك بعيدا عنها، فأين تقيم؟

ـ في فندق (ريجنت)!

وما أنْ ضمّتني إلى صدرها ضَمّةً أنعَشَتني، وأحيَتْ عظامي وهي رَميمٌ، حتى شعرتُ بيدٍ شابّةٍ، تُرَبِّتُ ربتةً قويّةً على كَتفي، كأنَّ يدَ مَلاكٍ نزلتْ فوقها، وَقاكُمُ اللهُ منها، ثُمّ تُزيلُ من خَصر صاحبتي يديَّ، متسائلةً في سُخريةٍ:

ـ أحقًّا، يا أبي، يصفون باريسَ بمدينةِ الأحلامِ الجميلةِ؟!

اِلتفتُّ إلى الخلف، فوجدتُها تتفرّسني بعينين ناريتين، وأجبتها بهدوءٍ:

ـ أجل، ابنتي!.. وما مناسبةُ هذا السؤالِ؟!

ـ إذا كانتْ باريسُ مدينةَ الأحلامِ، فاستيقِظْ حالا، وهيّا نغادِرِ المَكانَ، قبلَ أنْ تستلذَّ حُلمَكَ، فتظلَّ نائما، وتنسى أنّ لك زوجةً في فاس، تنتظر عودتَك بشوقٍ ولَهفةٍ!

إستغلَّتْ شكوتي ودهشتي، فأفرغتْ ما تخثَّر في جُعْبتِها:

ـ لا تنسَ أنَّك حكيتَ لي، قبلَ أنْ نأتي الكاتدرائيةَ، أنَّ الشاعر (فيكتور هيجو) خلَّدَها في روايته الرائعة «أحدبُ نوتردام» كوازيمودو قارعُ الأجْراسِ، الذي وقعَ في حُبِّ إزميرالدا، الراقصةِ الغجريَّةِ الحسناءِ (إيَّاكَ أعني واسمَعْ، يا جارُ) فتقرّبتْ منه، ولم تُبالِ بالعاهة التي تُشوِّهُهُ...!

إستسلَمتُ ورضختُ للسِّهام المُصوَّبةِ نحوي إيلاما، ثم قاطعتُها كيلا (تُظربَني) أكثرَ، وسرتُ بها نحو باب الكاتدرائية، وأنا أبتسمُ ابتسامةً صَفراءَ، وأكُزُّ على أسناني:

ـ يا سُبحانَ الله، لقد (أصبحتِ الفرخةُ تَزُقُّ الديكَ) الذي تميلُ شمسُ حياته للمغيب، شبَّهته بالأحدب...!

إكتَفَتْ بالنَّظر إليّ، ولم تُرِدِ التَّعليقَ عليّ، وهي التي حقَّقت هدَفَها البعيدَ من النَّبز والهَمزِ واللَّمزِ؛ فالقِيلُ والقالُ، سُنبُلةٌ فارغةٌ لا قَمحَ فيه!

ووجدنا نفسينا داخلَ الكنيسةِ العجيبةِ، تَغمُرُنا هالةٌ من الضِّياءِ، فانتابَنا إحساسٌ حادٌّ، كأنَّنا نغوص في حلمٍ، ونحن نَخطو خُطًى وئيدةً، بحذرٍ وحيطةٍ على أرضيَّةٍ من نورٍ يشِعُّ قويًّا، يُغشي البصرَ. وصرنا ندور وندور تحتَ قُبَّتها العاليةِ بثلاثةٍ وثلاثين مترًا، تُحيط بها أقواسٌ مزخرفة، ونوافذُ

زجاجيةٌ ملونةٌ، يطغى عليها اللونُ الورديُّ!

أردنا أن نصعَدَ إلى الغرفة العُلوية، لنشاهدَ الجرسَ النُّحاسيَّ الذي يزِنُ ثلاثةَ عشرَ طُنًّا...لكنّنا ما أنْ عَرَّجنا مائةً وعشرينَ درجةً من أربعمائةٍ واثنتين وعشرينَ، حتى بدأنا نلهَثُ، ونشعُر بأنفاسِنا تضيقُ، فنكاد نختنق. وفي التوِّ، غُذنا أذبارَنا، ننزل الدرجاتِ بسرعةٍ، اثنتين اثنتين، علَّنا نجدّد هواءَ رئتينا، ونسترجع بعضا من أنفاسنا الضائعة...!

ومنها عبزنا راجِلَينِ إلى حَيّ سانْ ميشال، فـ(اللُّوفر) على ضفة (السِّين) اليُمنى. ذلك القصرُ الذي حوّلَتْهُ الثورةُ الفرنسيةُ سنةَ 1793 إلى أكبر متحف أوروبي، يحتضن أربعمائةٍ وستين ألف قطعةٍ فنيّةٍ، موزعةٍ على ثلاثة أجنحة:

- جناح دينون، ويضمُّ تُحفا شرقَ أوسطية، من العصر الروماني، ورسوما أوروبية، من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا...!

- جناح ريتشليو، ويشمل لوحاتٍ متنوعةً، من فرنسا وألمانيا وهولندا، وتُحفا فرنسية.

- جناح سولي، ويحتوي على آثارٍ وتُحفٍ ورُسومٍ فرعونية وفارسية، سرقتها فرنسا في غزوها لمصر العربية. ومجسمات آشورية وبابيلية لتماثيل الثيران المجنحة، ذات الرؤوس البشرية، الحارسة لعروش الحكام، وألواح طينية لملحمة جلجامش، ومِسَلَّة (حمُّورابي) التي نُقِشَت عليها كلُّ نصوص شريعته، كأول دستور ظهر منذ أربعةِ آلافِ سنةٍ.

وبعضُ هذه الآثار الفنية، يعود إلى القرنين السابعَ والتاسعَ عشرَ،

وبعضُها الآخرُ إلى سبعةِ آلافِ سنةٍ قبل الميلاد. ومن اللوحات التشكيلية المعروضة (الموناليزا) للفنان الإيطالي ليوناردو دافينشي، التي فتنتني، فشدَّتني وأسَرَتني أمامَها طويلا، أتأمَّلُها دَهِشًا!

اِستغربتْ من اهتمامي الشَّديدِ بها، فسألتني متعجبةً:

- ما الذي أغجبكَ في هذه اللوحة، فتطيلَ النظرَ فيها، وهي عاديّةٌ جدًا، كأنَّها صورةُ جَواز سفرٍ؟!

اِرتسمتْ على وجهي ابتسامةٌ خفيفةٌ، وسألتُها بصوتٍ خفيضٍ، كيلا أُلفِتَ انتباهَ الزائرين الكُثُر:

- ألم تطلبي مني أنْ نزورَ اللوفر(فقط) لنشاهدَ الموناليزا؟!.. فلماذا، الآن، تُبخّسينَ قيمتَها الفنيَّةَ؟!.. وألم تلحظي، كسائرِ هؤلاء الزائرين، نظرتَها العذبةَ نحوَك، وابتسامتَها الرّقيقةَ لك، الوديعتين اللتين ترمزان إلى سِرٍّ مَكْنونٍ، لا تعلمُه إلا هي والرّسّام؟!.. وألم تلحظي براعةَ تَجسيمِها من جانبِها ومن أمامِها، ما جعلها ثُلاثيّةَ الأبعاد، ذاتَ أسلوبٍ جديدٍ في ذلك العصرِ 1503؟!

أضافت متسائلةً:

- لكن، ما الأجمل في نظرك: الموناليزا أم أمي؟!

ضحكت مِلءَ شِدقي:

- الآنَ، تأكَّدتُ أنَّ والدتَك أرفقتك معي لترصُدي حركاتي وتحصي أنفاسي، كيلا أزيغَ عن الطريق، ولو مع امرأةٍ مرسومةٍ، قبل عقودٍ!.. لالا، يا سيدتي، فأنا أحبُّ أمَّك، لأنها منحتني حياتَها، وأخلصت لي الحبَّ والوفاءَ، ولا تنسي أنَّني كذلك وهبتها حياتي. أمّا الموناليزا، فهي مُجَرَّدُ لوحةِ امرأةٍ مُشاعةٍ، يتمتَّعُ الجميعُ بلمساتها الفنيَّةِ والجماليةِ، التي شكَّلها ليوناردو دافينشي بريشته!

ويبدو من سكوتها، أنني أقنعتُها، فاجتزنا القنطرة التي تفصل ضفَّتي السين، من اليمنى إلى اليسرى، وبلغنا (الحيَّ اللّاتيني).. وهو يجمع بين ما يُغني العقلَ، من علوم وثقافةٍ وفنون وآداب، وما يملأُ البطنَ من مَطاعمَ ومَقاهٍ عربيةٍ وأوروبيةٍ وأمريكيَّةٍ وإفريقيَّةٍ...وما يَسُرُّ العينَ من لوحاتٍ تشكيليَّةٍ، وتُحَفٍ، وهدايا تذكاريَّةٍ... وما يُطْرِبُ الأذنَ من أشكال موسيقيَّة؛ ففي هذا المقهى جوق عربي، يصدَح بأغاني أم كلثوم، وفريد الأطرش، وعبد الحليم حافظ...وفي ذاك، فرقة الرُّوك، وبآخَرَ فرقةُ الهيبْ هوبْ، وهكذا...وإذا ساقتك قدماك إلى ساحة (سانْ ميشيلْ) تستوقفك فرقٌ أخرى، من جُزُرِ الهاواي، ومن إفريقيا.. وكانت جامعةُ (السّوربون) أولَ ما وقعت عليه عيونُنا، يتوسَّط ساحتَها تمثالا الشاعر والروائي فيكتور هيجو، والعالم الكيميائي لويس باستوز... وتحيط بها مكتباتٌ، وكليةُ الطِّبِّ، يعلوها تمثالُ العالم العربي (ابن سينا) ويُقَسِّم الحيَّ اللاتينيَّ شارعان فسيحان: سانْت جيرمانْ، وسانْت ميشيلْ، فضلًا عن شوارعَ صُغرى، يُشبِّهونها بالشَّرايين، التي تُزوِّدُهُما بالطاقةِ البشريَّةِ. أما الشارعان الرئيسيان، فيتقاطعان عند متحف(كلوني) الذي يزخَر بحمامات رومانية، وأعمال فنية تعود إلى العصور الوسطى. ويُقالُ لزائر باريسَ: إذا نزلتَ بساحةِ سانت ميشيل الكبرى، ولم تزر أو تُشاهِد (البانثيون) اليوناني، أي (معبد الآلهة) آلهة العلم، والأدب، والفن، والفلسفة، والفكر، والتاريخ، والسياسة...فتيقن أنَّ عينيك في حاجة إلى عملية جراحية!

قالت لي ابنت:

- هيّا ندخُلهُ حينا، وإلاّ علينا أنْ نُجريَ العمليةَ على أعيننا!

لم أتردّد قَيدَ أنمُلةٍ، وعَمِلتُ بنصيحتِها، خوفا من العملية، فمددتُ رجلي نحو الباب، وما أنْ هَمَمتُ أنْ أدخلَ، حتى أوقفتني بالعتبة، تُشيرُ بأصبعها إلى أعلى المبنى، فقرأتُ جملةً طويلةً وعريضةً:

«الوطنُ مُمتَنٌ لرجالِهِ العُظَماءِ»!

ولما دخلنا المعبَدَ، شعرنا بأنّنا نلتقي، فِعْلا، بأرواح العظماء من علماء وأدباء وفنانين وفلاسفة ومفكرين كبار، ولا غرابةَ في ذلك، فهناك تستقرُّ جَثاميثُهُم. منهم فولتير (فرانسوا ماري آروويه) وجان جاك روسو، وفيكتور هيجو، وإميل زولا، وماري كوري، ورينيه ديكارت...وبين أعمدته الضخمة الشاهقة، توصّل الفيزيائي الشهير جان برنارِ ليون فوكو عامَ 1851 إلى دوران الأرض بتعليق بندول (رقّاص) طوله سبعة وستون مترا، يتأرجح متدلّيا من القبة.

وغيرُ بعيدٍ، توجد نافورةٌ باسم (سانت ميشيل) يعلوها الملاك ميخائيل، يُسقِطُ الشيطانَ أرضا ويَدوسُه بقدميه، ما يثير تلك المعركةَ الأبديةَ بين الخير والشر، وبجانبيها أسدان مُجَنَّحان، يفور الماء من فَمَيهما: إنَّ تجسيدَ هزيمةِ الشيطانِ على يد ميخائيل، وإنْ كانتْ مَحضَ خيالٍ، رسالة تربوية توحي للمواطن بأنَ الشَّرَّ انتهى وانتفى، ولا يُقيمُ في هذا العالم إلاّ فاعلُ الخيرِ، وعليه أنْ يَكونَهُ. بينما نحن ما زلنا نُنسِبُ أفكارنا وأفعالنا السَّيِّئةِ إلى الشيطان، ونلعنُهُ لنتخلَّصَ من مسؤولية تلك الأفعال!

- إنّها فكرةٌ ذكيّةٌ!.. لقدِ استغلُّوا فنَّ النَّحتِ في توجيهِ وترشيدِ مواطنيهم، فأوحوا لهم بأنّهم مسؤولون عن سلوكاتهم، إنْ كانتْ خيرا وإنْ كانتْ شرا، بَدَلَ تعليقِ فشلِهِمْ وهزائمِهِمْ على شمّاعة الشيطان....!

- ألا ترى معي أنْ لا فرْقَ بين الحضاراتِ الإنسانيةِ، مهما تباينتْ أديانُهم ولغاتُهم وعاداتُهم وأوضاعُهم؟

سألتني ابنتي، فالتفتُ إليها أسألها بدوري:

- ماذا تعنين بهذه الملاحظة؟!

- في كل المدن العربية العتيقة، توجد نافوراتٌ، يُطلَق عليها (ماءُ سبيلٍ) يَهَبُها الأغنياءُ لأبناء السبيلِ، وهي مُرَصَّعة بالفسيفساء، وبنقوشٍ وزخاريفَ، لكنها تختلف عن نافورات أوروبا، إذ لا تزينها تماثيل أو مُجسمات منحوتة، كما نرى في نافورات إيطاليا وألمانيا واليونان. لكن، كنتُ أتمنى لو كنا نحتفي، مثلَهم، بشخصياتنا العلمية والأدبية والفنية، كالمهدي المنجرة وعلال الفاسي والمختار السوسي ومحمد بن عبد الكريم الخطابي والحسن الوزّان (ليون الإفريقي) ومحمد عابد الجابري وابن بطوطة والإدريسي وثريا الشاوي...كما رأينا في البانثيون!

ضحكتْ من أمنيتها الغالية، وهي بالمناسبة أمنية كل مواطن نبيل: ومن قال إننا لا نحتفي أكثرَ من باقي الأجناس البشرية؟!.. إنَّهم يستقرُّون في قلوبنا، نقدِّرُهُم ونُجِلُّهُم، ونذكرهم في كل آنٍ، ونستشهد بأقوالهم وأفعالهم في كل مقام، ونقتدي بهم في مواقفنا وسلوكاتنا.. فهم أحياء في عقولنا وقلوبنا يُرزَقونَ!

والحيُّ اللاتينيُّ، تتوسَّطُهُ حديقةُ (لوكسمبورغ) مِثلَ عِقدِ لُؤلُؤٍ يُزَيِّنُ عُنُقَ المرأةِ، بمجرَّد ما تنظر إلى صاحبته، يلفِتُ نظرَكَ، فتنشغلُ به عنها. هكذا الحديقةُ، تجذِبُكَ بسحرِها الطبيعي لتأخُذَ فيها قِسطًا من الرَّاحةِ، ثُمَّ تُتابِعُ تَجوالَكَ.

وتحتوي على آلافٍ من أشكال وألوان الزُّهور، والأشجار والنَّباتاتِ المتنوعةِ. ويقال إنَّها كانت مِلكًا لِمَلِكةِ فرنسا ماريا دي ديدتشي، تُحيط بقصرِها الذي تحوَّل، اليومَ، إلى مجلس الشيوخ، كما أصبحتِ الحديقةُ مفتوحةً للعامَّةِ، منذ 1912.

قلتُ لها باسمًا:

- لقد أريتُكِ الوجهَ المشرقَ لمدينة الأنوار، والآنَ، سآخذُكِ لترينَ وَجهَها المظلمَ!

إعتبرتْ كلامي مُزحةً، فردَّتْ عليَّ مُتحدِّيةً:

- لنذهَبْ حينًا، فأنا، أيضا، مَلَلْتُ النورَ، وأريد أن أمضِيَ أُوَيقاتٍ في الظلام

الحالِك!

اِتَّخَذنا دَوْرَنا في صَفٍّ طَويلٍ، لنحصُلَ على تذكِرَتَي النزول إلى (سَراديبِ الموتى) تحت الشوارع الباريسية!

سألتني مستغربةً، وهي تُفسِك بذراعي مُتَوَجِّسةً:

- أهِيَ قاعةُ سينما تَحتَ الأرضِ؟!

- لا، إنَّها دَهاليزُ طويلةٌ، تضُمُّ سِتَّةَ ملايين من عِظامِ الموتى وجماجِمِها، دُفِنوا في القرون الوسطى...!

وبصوتٍ حادٍّ زادتْ:

- كيف تأتي بي إلى هذا المكان المُقْرِفِ الكئيبِ، وتدفع ثَمَنا باهِظا لزيارته؟!.. لو كنا نريد أنْ نزورَ القبورَ، لَقَصَدْنا (باب فَتّوح) لنترحَّم على أقارِبِنا، فهم أولى من هؤلاء!

- ألم تريْ هذا الكَمَّ الهائلَ من الزّائرين؟!.. أجَميعُهُم على خَطَإٍ؟!.. لماذا لا نكتشفُ عالما آخرَ، يُحيلُنا على تاريخ فرنسا البشع؟!

سِرنا بين الأنفاقِ والغرف والأقواس المُزينةِ بالجماجم والعظام، بينما الدليل الصوتي يصحبُنا، ليدلي بمعلومات عن كل مشهد:

- لقد كانتِ السّراديب مُجَرَّدَ غيرانٍ، لكنْ عندَما ضاقتِ المقابرُ بالجُثَثِ، بدأنا ندفن موتانا في هذه الأماكن المظلمة. وزاد قائلا: ستضطرون للمشي حوالي كيلومترين كاملين، في سلاليم حلزونية، ترتفع تارةً وتنخفض تارةً، وستشعرون بقليل من البرد، إذا لم تحضروا معكم لباسا دافئا. كما لا توجد حمامات، لمن لا يستطيع أنْ يضبط بطنه. وهنا، علت موجةٌ من الضحك، والآهات الهازئة! كيلومتران (فقط) في العالم السفلي، بينما الطول يتخطّى ثلاثمائة كيلومتر، تمتد تحت (اللوفر) و(برج إيفل) والعديد من المعالم.. أنظروا وتفرَّسوا هذه الجماجمَ!.. تحكي عن أشكال من الموت، إذ كانتِ الثورات والحروب الطاحنة، والمقاصل المؤلمة، والأوبئة

الرهيبة،

وسواها سببًا لها!

قالت لي متشنّجةً:

- لنغادرْ هذا المكانَ، فأنت شيخٌ، ستضيق نفسُك لقلّةِ الهواء، ولا تستطيعُ أنْ تضبطَ بطنك!

قاطعتُها ضاحِكا:

- أظُنُّ أنَّكِ تجعلينني عُرْضَةً لرغبتك.. لنغادرْ!

في مساء ذلك اليوم، عُدنا مُرهَقَيْنِ إلى الفندق، نجُرُّ أرجُلَنا بصعوبةٍ، كأنَّنا من معطوبي حرب الهند الصينية!.. كيف لا، ونحن زُرنا كلَّ معالمِ باريسَ، قبلَ نهايةِ العالمِ بيومٍ (لا تُغالِ ولا تُبالغْ، أيُّها الكاتبُ)!.. فاستقبلتنا المضيفةُ بابتسامةٍ غيرِ عاديَّةٍ، وبعينين تبرُقانِ، كأنها تُخفي سِرًّا خطيرًا. ثم نادتني أنْ آتيَها، فتقدَّمتُ منها بخُطًى وئيدةٍ، وقلبي يخفق، بينما بقيتْ ابنتي واقفةً في مكانها، لكنَّها مُتأهِّبةٌ لكلِّ طارئٍ...!

همستْ في أذني، وهي تدسُّ في يدي بطاقةً:

- قالتْ لي إنَّها التقتْ بك صباحا في ساحة نوتردام، وقضيتما لحظاتٍ ممتعةً في الرَّقص. ولقد انتظرتْك طويلا، ولمَّا تأخَّرتَ عنها، تركتْ لك هذه البطاقةَ!

وقبلَ أنْ تمتدَّ يدي لأخذِها، غافلَتْني ابنتي، وخطفتْها من المضيفة في طَرفةِ عَيْنٍ، ثُمَّ قرأتْها قراءةً يابانيةً (سريعةً جدًّا) ومزَّقتْها قِطَعًا دَقيقةً، وقالت غاضبةً:

- تريدُ منك أنْ تُهاتِفَها حينًا، لتُحدِّدا موعدَ لقاءٍ (حميمي).. لم يكذب الذين أطلقوا على هذا الحيِّ اسمَ (حيِّ العُشَّاق)!

نهرْتُها باحتدادٍ، وأنا أغمز المضيفةَ:

- كنا نتفِقُ على أنْ أرفعَ ضِدَّها دَعْوى تَحرُّشٍ!.. إذن، أين هي حُجَّتي، وأنتِ

مَزّقتِ بطاقتَها، الدّليلَ الوحيدَ الذي أملِكُهُ؟!

إقتَرَبتْ مني، وطبعتْ خدّي بقبلةٍ:

- أحقًّا ما تقوله؟!.. سامحْني، لم أكنْ أعرفُ أنّك تُحِبُّ أمي كلَّ هذا الحبِّ!

حذّرتُها ببرودٍ:

- لكنْ، عِديني بألاّ تتدخّلي في سلوكاتي الشخصيةِ، مهما خامَرَكِ الشّكُّ فيها!

رفعتْ رأسَها موافقةً، وانصرفنا إلى غرفتنا، فيما ظلّتِ المضيفةُ غارقةً في بحرٍ من الدّهشةِ والصّمتِ، وحريقٍ هائلٍ من الأسئلةِ!

* * *

7

عـربـيٌ فـي تايـلانـد!

لا أدري ماذا كان سيحصل لي، لو لم ألْـتـقِ بذلك الشابّ المغربي، الذي يشتغل دليلا سياحيا بإحدى وكالات الأسفار، وإن كنتُ غالبًا ما أحترز في علاقاتي بالآخرين، الذين أصادفهم في رحلاتي الداخلية والخارجية؟!

لم أكُنْ أتصورُ يوما أنَّ هناك في بلد أسيوي، يعَضُّ بالنَّواجِذ على لغته ودينه، وعاداته وتاريخه، وتربيته الوطنية والقومية، وتراثه ونظامه السياسي التقليدي، أنْ يوجَدَ فيه نادٍ لتلقين الفتياتِ اليافعاتِ دروسا في إغراء الرجال وجذْبِهِمْ، خصوصا الوافدين من دول النّـفْـط، ذوي العمائم!

ولم تكُنْ فوق رأسي كوفـيَّةٌ، يَلُفُّها عِقالٌ، أو أرتدي عَباءةً، أو أنتعلُ صَندلا، حتى أُحشَرَ في زُمرَتِـهِـمْ، غيرَ أنَّ اسمي (الشخصي) فضحني، وجعلني غُرْضَةً للإغراء المجاني. فأنْ يقرأ أو يسمعَ الواحدُ منهم اسمَ (العربي) فهذا يعني أنَّ صاحبَهُ يجُرُّ معهُ (أنبوبًا نفطيًا)!

ذلك أنني، بمجرد ما أوصلتـنـي سيارةُ الأُجرةِ إلى الفندق، ونَـفَـحْتُ السائقَ إكْراميةً، والعاملَ الذي حمَلَ الحقيبةَ إلى الغرفة 312 في الطابق السابع، أحسستُ بأنَّ نَحْلاتٍ يَحُفن حولي، ويرتقبن الفرصةَ المُواتيةَ للـنزول فـوق العسل، ليرشُـفْـنَـه ويلعـقْـنَهُ كلَّهُ!.. ولم يـكن ذلك العسلُ الحُـلْـوُ

اللّذيذُ إلا هذا اليَقِظَ الحَذِرَ الذي «يصُونُ الدرهمَ الأبيضَ لليوم الأسود»!

كانت تلك الرحلةُ سنةَ 2011 التي شهدنا فيها بَوادرَ ما يُطلقونَ عليه (الرَّبيعَ العربي) أو كما يحلو للبعض أن يسخرَ، فيحوِّله إلى (الخريف) !

خطر ببالي السؤالُ التالي:

ـ لماذا لا أسافر، لأنْـأى بنفسي عن هيجان البحر، الذي لا يُبقي ولا يَـذَر، فأنا من «أهل مكةَ الأذرى بشِعابِها»؟!

وصادفتْ تلك السنةُ، تقاعدي عن العمل، وفوزي بتعويض مُغْرٍ، يَندَلِقُ له اللُّعابُ خُيوطا متواصلةً، ما ملأ جيبي، وجعلني كَفيفًا عفيفًا، في غِنًى عن الناس. كما أنني من الذين يؤمنون بالحظ؛ فإمَّا أنْ يبتسمَ لك، فتأتي أمورُك مستويةً من ألفِها إلى يائها، وإمَّا أنْ يَعْبَسَ ويَتَوَلَّى، فتأتي نَيِّـئةً سيِّئةً، تُـنَغِّص عيشَك طولا وعرضا!

وفعلا، قَرَّ قراري، في شهر أبريل من تلك السنةِ، على مملكة تايلاند؛ إذْ بعد سِتَّ عشْرَةَ ساعةً (دون خمسِ ساعاتِ انتظارٍ بالدوحة) وأنا مُعَلَّقٌ في السماء، بين الجو والبر والبحر، من الدار البيضاء إلى بانكوك العاصمة، وصلتُ مطارَها (دونْق لونْغ) الذي يَعِجُّ بالْخَلْقِ، من كافَّةِ الأجْناس البشرية، كَيَوْمِ الْحَشْر (ثلاثُ ساعاتٍ، على الأقل، من المطار إلى الفندق لحركة المرور المختنقة) كأنَّك في مُخَيَّم لاجئين!

وما أنْ دَلَفْتُ إلى غُرفتي، ونزعْتُ عني بَذلَتي، لأستريحَ مِن عَناءِ السفر، وأسترجِعَ أنفاسي الضَّائعةَ، حتى تناهى إلى سَمْعي طرقٌ على الباب، فقمتُ لأفتحَهُ، وإذا بي أجِدُ شابًّا مغربيًا، يبتسمُ في وجهي:

ـ السلام عليكم، لقد أخبرتني المضيفةُ بأنك مغربي، أليس كذلك؟

ـ أجل، لم تخطئِ المضيفةُ، جزاها اللهُ خيرًا.. تفضَّل!

ـ شكرا!.. اِسمَحْ لي أنْ أُعَرِّفَكَ نفسي.. أنا دَليلٌ سياحي من مدينة سيدي بَنُور، التي...!

قاطعته باسما:

ـ ومَنْ لا يعرفها؟!.. هي أغنى أراضينا زراعةً، وتربيةً للماشية، وأكبر سوق للمواد الفلاحية والحيوانية، وبها أكبر معمل للسكرا!.. لكنْ، بماذا تنصحني، وأنت الخبير بهذا

البلد الآسيوي؟!

أطلق ضحكةً عاليةً، ثم قال هامسا ومُحذِّرا:

- إياك مخالطةَ النساءِ، فجميعهن تدرّبن وتَكَوَّنّ بنادي (برايا) للإغراء!

- وهل تظنُّ أنَّ رجلا مثلي، وفي سني، ينساقُ وَراءَهُنّ؟!

- صَدِّقْني، إذا قلت لك، إنَّهُنَّ يُفضِّلنَ كبارَ السِّنِّ على صِغارِها، لأنَّهُم يَملِكونَ المالَ أكثرَ، ويُكْرِمون المرأةَ التي تلبي نَزواتِهِمْ إكرامًا حاتِمِيًا. ولا تنسَ أنَّهُمْ يُعانون نقصا في...!

إِعْتَرَضْتُ قائلًا:

- لا، لا تَخالَنَّ أنّني سأفعلُها، ولو في الحلم، فأنا تَعَوَّدْتُ أنْ أَضبِطَ نفسي، وأُحجُمَها عن شَهواتِها، وإنْ كنتُ لا أعاني نقصا في...وثِقْ بأنَّ ملكاتِ جَمالِ العالم لن يستطعْنَ إغرائي!

تلألأتْ عيناهُ فرحا:

- هذا ما أرجو، سيدي!.. لكن، حَذارِ، فالجسدُ جَرَّةُ عَسلٍ مُعَتَّقةٌ!.. إنَّهُنَّ داهياتٌ، يَستَعمِلْنَ أساليبَ مُغريةً، وخُطَطًا ذكيةً، لا يَدريها إنسٌ ولا جانٌ. ومِنْهُنَّ أشكالٌ وألوانٌ، فَبَعضُهُنَّ مِنَ القوقازِ، وأُخَرُ منَ الصين، وكلُّهُنَّ يتكلَّفن العربية والإنجليزية بطلاقةٍ!

وصَمَتَ قليلا، قبل أنْ يُردِفَ:

- لا أعني بائعاتِ الهوى فقط، إنّما هناك مثليو الجنس كذلك، الذين يأتونك بصفة مرشدٍ أو مُدَلِّكٍ أو سائقٍ أو بائع، ثم يتسللون إلى عالمك بطريقة سلسة، لا تشعر بنفسك إلا وأنت فريسةٌ ثمينةٌ في شباكه. فالمثليات والمثليون، ومزدوجو الميول الجنسية، بل والمتحولون جنسيا، كالنّخل أو النّمل، لا يُعَدُّونَ ولا يُحصون، ستقابلهم في كثير من المقاهي والأندية، ويُنادون عليهم بالتايلاندية (كرائويس) أو (لاديبويس) وإنْ كانتْ هذه الحالاتُ مُتواريةً للعادي والبادي، لا تظهر في شوارعهم،

ولا في قنواتهم التلفزية، ولا في أشرطتهم السينمائية، أو في وسائل إعلامهم. فهُم، كما سيبدو لك جَلِيًا، مُحافظون في ألبستهم وأحاديثهم وسلوكاتهم وعلاقاتهم، لا يرفعون أصواتهم عاليا، ولا يحتدُّون في غضبهم، ولا يتسابُّون، ولا تسمع من أفـواهِهـم إلاّ سلاما سلاما، وكلُّ شيءٍ يُـمارَس بينهم في السِّرِّ والكِتْمان!

يكفي أن أقولَ لك إنَّ تناوُلَ النَّبيذ، مثلا، مَحظورٌ الْجَهْرُ به، ولا يُستَهلَك إلا في الأماكن الخاصة، ومَنْ يَخْرُقُ هذا القانونَ، يُعَرِّض نفسَه لعقوبةِ السجن والغرامة معًا!

ضحكتُ قائلًا:

- اِطْمَئِنَّ بالًا، سيدي، بأنني لا أشرَبُ بَتاتًا، غيرَ الحليبِ، لأنَّ أمي، رحمها الله، نَسِيَتْ أنْ تفطِمَني، رغم أنَّ سني تُطِلُّ على السبعين خريفا!

قال بابتسامة على شفتيه، وهو يودِّعني:

- إذن، لا خَوْفَ عليك، يابنَ بلدي!.. لأترُكَك، الآن، تسترخ، فلا شك أنَّك تشعر بالعياء!

في اليوم التالي، انصرفتُ من الفندق باكرا، قبل أنْ تستيقظَ الحورياتُ، فيعترضْن طريقي، عملا بنصيحةِ الدَّليلِ المغربي. وسِرْتُ في الشارع المقابل للنُّزُلِ، ألْتَهِمُ بعينيَّ في لَهْفَةٍ منظرَ هذا المبنى ومنظرَ ذاك، سواء كان عتيقا، أو حديثا. فهذه المدينة، مليئةٌ بالتناقضات، نابضةٌ بالعجائب والغرائب. كلُّ ما تحتويه، يوقفك طويلا لتأمُّلِهِ، ويُثير فيك الدهشةَ والذُّهولَ. ولا غرابةَ في ذلك، فالعاصمة التي يـزويها نـهرُ (تـشاو) يصفونها بـ(مدينة الملائكة) وبـ (الفِرْدَوْس) لجمالها الساحر، وينطقونها اختصارا (بانكوك) لأنَّ اسمَها الحقيقي يتألَّف من ثلاثين (كلمةً) يُقْصَدُ به (أرضُ شجرِ الزيتون) وفَكِّرْ معي، لو بقي اسمُها الأول مُتداوَلًا، وسألك أحدُهُم، مثلاً: إلى أين ستـتوجّهُ؟.. فستجيبه بنصٍّ طويلٍ!

لا علينا!.. وبينما أنا سائرٌ، إذا بي أرى صورَ ملكهم (بوميبول أدوليـاديـج (معلقةً على الجدران، بل ملصقةً على أبواب ونوافذ سياراتِ الأجرة، والحافلات والشاحنات، وعلى جدران المطاعم والمقاهي. فالملك، في نظرهم، بمثابة (إله) تولى العرش منذ 1949، وهو أغنى ملوك العالم(توفي في 2016(.. لذلك، ينبغي أنْ يُخترمَ، وأيُّ

لَفتةٍ غيرِ لائقةٍ، يُساءَلُ عنها صاحِبُها، ولو كان سائحا. وللتّعبير عن تهنئة الشعب في عيد ميلاد الملك (عيد الأب) يرتدي الناس القُمصانَ الصفراءَ، وفي عيد الملكة (عيد الأم) يرتدون القُمصانَ الزرقاءَ. ويقال في عقيدتهم (البوذية) إن الأرواح تهنأ باللونين، فتمُدُّ في عمر الملكين!

في تلك اللحظة، فاجأني (النشيدَ الوطني) يُعزَفُ، فتوقّف الراجلون على الأرصفة، وحركةُ المرور لوسائل النقل توقفتْ هي الأخرى.. وبدوري تجمّدتُ في مكاني، ورفعتُ رأسي، كسائر عباد الله، أتظاهر بأنني أردِّد النشيدَ، فأفتح فمي وأطبقُ شفتيه، دون أنْ يعلُو صوتي!

ولمّا سَكَتتِ الأبواق، وعادتِ الحركةُ إلى طبيعتها، هَزَّ لي البعضُ رُؤوسَهُمْ، تعبيرا عن فرحِهِمْ بمشاركتي لَهُمْ، واحترامي لنشيدِهِمُ الوطني، ولِملِكِهِمُ الْهُمامِ، الذي ينادونه بـ (أبي(. وهذا المشهد، يتكرر مرَّتين كلَّ يومٍ (دون مُبالغةٍ أو مُغالاةٍ) صباحًا في الثامنةِ، ومساءً في السادسةِ، كطابور المدارس في المشرق. وقيل لي إذا كنتَ في دور السينما، أو قاعات المسرح، يُطْلَبُ من الحاضرين أنْ يقفوا لترديد النشيد، ووَيلَ مَنْ يعترض!

ولعل من الصدف الحسنة، أنَّ فندقي، كان يطل على معبد (بوذا) الشهير، الذي إنْ لم تزُرْهُ، فكأنَّك لم تزر بانكوك، لأنه يُجَسِّد الثقافةَ الروحيةَ للتايلانديين، فنسبة خمسة وتسعين في المائة، يدينون بالبوذية!

عندما تخطو أولى خطواتك في المعبد، تجد إلَهَهُمْ بوذا قُبالتَك، مُتَّكِئا على دَكَّةٍ بطولِ خمسةٍ وأربعين مترا، وبعُلُوِّ خمسةَ عشرَ مترا، مُطَعَّما بالذَّهبِ. وستلمح البعضَ بطرف عينك يتمسَّح ويتبرَّك به، ويبكي عليه بكاءً مُرًّا، لحدِّ الشَّهيق، لأنَّ التمثال يُجسِّد بوذا (على فراش الموت) يلفظ نفسَهُ الأخيرَ، قبل أنْ يبلغ (النيرفانا) أي لحظة السكينة النّهائيّة!.. كما ستلاحظ أنَّ كلَّ الزَّائرينَ للمعبد، بِمَنْ فيهِمُ السُّيّاحُ، يخلعون أحذيتَهُمْ، ويرتدون ملابسَ طويلةً ومُحتشِمةً، ولا يُسمَح بالضّيِّقةِ أو القصيرةِ أو الشفّافةِ، التي تُبرز معالمَ الجسدِ وقَسماتِهِ، ولا حتى بالقميص دون كُمَّيْنِ. ويُحظَرُ على النّساءِ لَمْسُ الراهبِ، أو مُصافحتُهُ، أو تقديمُ شيءٍ له مُباشَرَةً، يدًا بيدٍ،

لأن الشيطانَ، سيغتنمُها فرصةً ليُدَنِّسَهُ، ويَحيد به عن الخط المستقيم!

ويعيش بين جَنباتِهِ حوالي ثلاثمائة من الرهبان، يُبهرونك جدًا بملابسهم الزَّعفَرانية، وهم يذرعون ممراتِ المعبد، ذهابا وإيابا، في وقار شديد، وخُطى رزينةٍ. كما يوجد في هذا المعبد، دير يحتوي على قاعاتٍ خاصةٍ بالتدليك والعلاج التايلانديين التقليديين، فترى على عتبات أبوابها، صفًّا من المرضى، الوافدين من أوروبا وأمريكا، والعالم العربي، ينتظرون دورَهُم. فالتراثي، هنا، يمتزج بالعصري، والقَدامَةِ بالحَداثَةِ، والديني بالعلمي...وهناك من يفضِّل تدليك الفيلة، فيقصد قُرى معينةً، ليشاهدَها ويمتطيَها، وفي الوقت نفسه، يتمدَّد على الأرض، لتدلكه بخرطومها، خصوصا النساءَ، اللواتي بطبيعتهن يحبن الدّغدغة.. وتختم الفيلة عمليةَ التدليك بقبلةٍ على الرقبة!

وإذا سرت على قدميك مسافةَ عشرِ دَقائقَ من المعبد، سيقابلك (واث فرا كايو) المعروف، أيضا، باسم معبد (بوذا الزمردي) المليئ بتماثيل الوحوش والشياطين والأبالسة، ذوي القرون الملتوية، والأعين الجاحظة، والأظافر الطويلة المتسخة... وفيه يبدو لك (بوذا) بجسم زُمردي، عالي الهامة، طويل القامة. وهو من أهم المعابد الثلاثة الأولى في بانكوك من أصلِ أربعمائة: (واث فرا كايو) و (واث أرون) و (واث فو(...!

أمّا إذا كنت مَحسوبا على الذين يبحثون عن شيء غير عاديٍّ، يُنَشِّط عقلَك، ويشحذُ خيالَك، فعليك أن تزور متاحفَ بانكوك، فهناك سترى ما لا يخطر ببالك. يكفي أنْ أُمَثِّل لك بمتحف (فالوس) أي (عضو التناسل) الذي يشهد إقبالا مُنقَطِعَ النَّظير، لما له من فوائدَ جَمَّةٍ على النساء. ففي هذا المتحف، تُعرَض أصنافٌ وأشكالٌ من الأعضاء، منها الطويل ومنها القصير، ومنها النحيل، ومنها السمين، وهي منحوتاتٌ خشبيةٌ وحجريةٌ، مزينةٌ بشرائطَ ملونةٍ، تُضفي عليها جمالا وسحرا، فتشد أنظارَ النساءِ، وهُنَّ زبوناتِ المتحف، بدرجةٍ أولى. ويقال إنها تُمَثِّل في الثقافة التايلاندية (روحَ الخصوبة) فيأتين بباقات أزهار اللوتس والياسمين هدايا لتلك الروح، لعلَّ وعسى أنْ تجودَ عليهنَّ برجلٍ، إذا كُنَّ عانساتٍ، أو بمولود، إذا كُنَّ

عاقراتٍ. فهذه المعتقداتِ، تمتدُّ جذوزها إلى (الهندوسية) في الهند القديمة. و (البوذيةُ) الحديثةُ، تتقاسم معها جُملةً من الرموز والطقوس الروحية الرئيسية. بل نعتبرها مشتركة بين كافة الأمـم والشعوب، وإنْ كانـت، عند هـذا أو ذاك، مختلفةً من ناحيةِ الشكلِ. فمثلا بالمغرب، توجد في قرية (بوزمو) التي تبعد عن (إملْشيل) بثمانية عشر كيلومترا، عينُ (إغبولة) تزورها الفتياث الشّابّاث كلَّ أحدٍ، فيصبُبْنَ على أجسامِهِنّ أربعين غُرّافا من الماء، ليتيسّر زواجُ العوانس، وإنْجابُ الْعَقائم. كما توجد في (القصر الكبير) صومعةُ (البنات) يطفن حولها سبعَ مراتٍ، ليُقْضى غرضُهُنَّ، وكذلك في باحةِ ضريح المولى إدريس بفاس، يجلسن على الحصير، فينتظرن «الذي يأتي ولا يأتي».. ليكُنِ اللهُ في عَوْنِهِنّ!.. فالاهـتـمام بالعلم والتكنولوجية لا يعـني أنّ البشرية تخـلـصـث من الخرافة المعشثة في عقولها، لأن ثقافة المجتمع تؤثر في الأجيال أكثر من التطور العلمي والتكنولوجي، سيما إذا كان النظام الشُمولي متشبثا بالخرافات، إما ليظل شعبُه متخلفا، فيسهل عليه تطويعُه وتركيعُه، وإما ليستغلّها في حقل السياحة، كَرافد من روافـد الاقـتـصـاد...فما تبنيه الآلات الحديـثة، والفكر الراقي المتطور، تهدمه الأنظمة التقليدية، القابضة على الحكم بيدٍ من حديدٍ!

وعلى الضفة الغربية لنهر (تشاو) يوجد (المتحف الشرعي) في مستشفى (سيريراج) ويحتوي على تماثيلَ وأجسامٍ محنطةٍ في خزائنَ زجاجيةٍ، ومجسماتٍ لـ (علم الأمراض) و (التشريح) و (الاضطرابات الوراثية) وكل الآفات والأمراض المعدية والمزمنة...فضْلًا عن أشهر ما في التاريخ البشري، منذ عقودٍ طويلةٍ، من (ضحايا الحوادث) و) آكلو أكباد الأطفال) و (القتلة المجرمين) و (المجانين) و (الوحوش الآدمية) وبعض الحشرات والحيوانات التي تعُفُّها النَّفسُ، ويغُضُّ عنها النظرُ، مثل (العـنـاكـب) و (الخـنـافـس) و (الدِّيدانِ) و (الطفيليات) و (الجُرذانِ) و (الحَـيّـاتِ والثعابينِ(!

وأذكر أنني في عشرين من أبريل، كـنـث مـارا بسوقٍ شعبي، وإذا بـرجلٍ قصير القامة، بدين الجسم، يدنو مني باسمَ الوجهِ، يُخـفي بـيـديه شيئا ما خـلفَـهُ، فـارتـخـث له. لـكـنـه أراد بابـتـسامته الخفيفة أن يُطَمْـئـِنَـني، كيلا

أنْزعِجَ مِمَّا سيأتي، وأنْ أتـقـبَّلَ مُزاحَهُ بِرَحابةِ صَدْرٍ!

وما دفعني إلى الظنِّ به والحيطةِ منه، أنَّ جماعةً من أصدقائه، أخذوا يضحكون، وينظرون إليَّ تارةً، وإليه تارةً أخرى. ثم لم يَلْبَثْ أنْ أظْهرَ من ورائه قنينةً كبيرةً، وباغَـتَـني بـرشِّ مائها على بَذلَتي، وهو يضحك، فلم أنفعلْ، كعادتي دائما، إنَّما بقيتُ في مكاني ثابتًا، أُحَدِّقُ في حركته، لأنني أدركتُ أنَّ ذلك اليوم (عيدُ الماءِ) عندهم، يتراشُّ فيه الناسُ، تَمامًا مثلَ ما يفعله عندنا الأطفال والفتيان في ذكرى عاشوراءَ. ولمّا انتهى، ولاحظ أنني هادئٌ، لم أُدِرْ له ظهري، أو أتبرَّمْ من فِعْلِهِ، أقبلَ عليَّ يُعانقني، ويُرَبِّتُ على كتفي، باشًّا في وجهي. فأشرتُ له بيدي بأنني أريد أنْ أشرَبَ، فمدَّ لي في الحين القنينةَ، وبخفَّةٍ، جَذَبْتُ رأسَهُ إلى صَدْري، كيلا يفْلِتَ مني، وصَبَبْتُها عليه كالرَّشّاشِ، لأنه كان قصيرا، فانسابَ الماءُ يجري من فوقه إلى تحته، فيما انطلق أصدقاؤهُ يقهقهون ويصفقون. غيرَ أنَّ الرَّجلَ ثار عليَّ حانقا، يريد أنْ يلكُمَني، فحال بِعضُ أصدقائه بينه وبيني. وكـنـتُ، حـيـنـئـذٍ، أستعدُّ لتوجيه ضربةٍ قويةٍ بقدمي لبطنه المتدلية، لأنني أمضيتُ سنواتٍ في نادٍ للمصارعة بمدينة مكناس، في عِزِّ شبابي، وما زلتُ، لحدِّ اليوم، متمكّنا من تلك التمريناتِ الرياضية، التي تُشعِرُني بالثّـقةِ في النفسِ، وتُـنـقـذُني في المواقف الحَرِجة، رغم أنني أصبحتُ كبيرَ السِّنِّ!

وحـيـن سألـتُ الشابَّ المـغـربي، لماذا تَقَبَّلَتْ رشَّهُ، ولم يتحَمَّلْ هو رَشّي، أجابني بأنَّ التايلانـدي يَعتبر الرأسَ أعلى عُضوٍ من الروح، لا ينبغي مَسُّهُ، بينما الـقـدمان تمثلان الدنيا، أي العضوين السُّفلـيـين في الجسم، فلو رشَشْتُ

لباسَهُ، لما انفعل وتشنّج!

ولذلك، فإن التايلاندي، أول شيء يفعله، عندما يعود إلى بـيـتـه يغسل قدميه، ولو كانتا نظيفتين، تلبسان الجوربين، وتنتعلان الحذاءَ، لأنَّهُ يطأ بِهِما العالمَ السفلي، المليئَ بالوسخ والغبار، ولو أنَّ الأرضَ عندهم نظيفةٌ، كالمرآةِ. وحتى القانون التايلاندي، يعاقب كلَّ من يلقي بالوسخ في الطريق، أو العلك في الأرصفة، لا لأنّ هذه الفضلاتِ توسّخ الأرضَ فقط، إنما هي تلوّثُ الأقدامَ أيضا، خَشيَةَ صُعودِ التلوث

إلى الرّوح النّقيّة، والنّفس البَهيّة، وبذلك يلتقي المعتقد الديني بالقانوني..!

إنّ الشيءَ (العلوي) أو (الثاني) في التراتبية، هو المقدّس والمفضّل في الثقافة التايلاندية؛ لنفرض أنّك سألتَ أحدَهُم سؤالين اثنين، دفعةً واحدةً، فإنه سوف لا يجيبك إلا عن السؤال الثاني، كأنه نسي الأول. لكنه، في الحقيقة، يتجنّبه، لأنه في ظنه أدنى من الثاني، وربما أصبح هذا السلوك عادةً فقط، مع الجيل الناشئ. أي لم يعُد مرتبطا بالمعتقداتِ، لكنه بقي حاضرا في السلوكاتِ والمعاملات!

ولما كان الشيء بالشيء يُذكَر، فإن التايلاندي يُفَضِّلُ في الحوار معه، أن يُكرِّرَ الكلماتِ، مَزفوقةً بالابتساماتِ، حتى تظنَّه يسخرُ منك، ويَهزَأُ بك، وما هو بساخرٍ، ولا بهازئ، إنّما يستعينُ بهذا التّكرارِ والتّطويلِ لكَسْبِ الوقتِ، لحظةَ التّفكير والتّذكُّر، قبل الرّدِّ أو الإدلاءِ برأيه، بينما الأوروبي، يفضِّلُ أنْ يتريَّثَ عند الإجابةِ، أو الخَوضِ في الكلام الدّائرِ. أمّا العربي فيقاطعك، أو يبادر في الحديث، ليستعرض

عضلاته اللسانيَة، وليُظهِرَ تفوُّقَه (الباهرَ) عليك!

يمكنك أنْ تبتعد قليلا أو كثيرا عن بانكوك وصخبِها، ليلَ نَهارَ، لتنعمَ بالراحة والسَّكينة، فتمتطي قاربا، يسير بك في نهر (تشاو) والأسماك تقتفي قاربك، لأنها تعوّدتْ أنْ تتلقَّفَ بلهفةٍ فُتاتَ الخبز أو الكَعْكِ، الذي يُلْقيهِ الرُّكّابُ لها. وليس غريبا أنْ تَراها تقفز إلى أعلى فرحةً، حتى تلمسَ يدك، وهي فاغِرةٌ فَمَها على مصراعيه، لتلتقطَ منك زادَها اليومي!

ويسير بك القاربُ لتزور معابدَ أخرى، كمعبد (الفجر) الذي يعتبر من الناحية الفنية (طِرازا خُرافيا (لأنه بُنِيَ سنة 1768 تَعظيمًا وتقديسًا لـ (الإله الهندي أرونا) كي يُنْعِمَ على أهل تايلاند بالعيش الرّغيد. وسُمِّي بهذا الاسم، لأنّ الزّائرَ له، إذا قضى فيه ليلته، وأنا لم أفعلْ، فإنه سيشاهد في الفجر منظرا رائعا للغزالة، غُدْوًا، للشمس، وهي تُشرق رويدا رويدا، وحتى في المساء، وهي تغرب شيئا فشيئا. وما أضفى على المعبد جمالا أكثر، هو جدرانه المصنوعة من الخزف بعلو تسعة وسبعين مترا، والمحفوفة بأصنافٍ من الزهور والورود الزكية، بَتلاتُها دقيقة جدا ورهيفة، يهزُّها النّسيمُ، فتُدَغدِغُ أرنبةَ أنفِك. وله بُرْجٌ عالٍ، كلما صعدته، ضاق بك، إلى أنْ تبلغَ قمته، فتجد،

هناك، أرواحُ الآلهة البوذية تُرَفرِفُ، لكنْ، عليك أنْ تكون من معتنقيها لتحسّ بها، وتتمثّلَها، فتتبرّكَ بها، أمّا إذا كنت مثلي، فستتخيَّلُها بين عينيك فقط!

ومن هذا المعبد، تعبر مسافةَ خَفيسٍ وعشرينَ دقيقةً بالقارب، فتدخل غابةً، تشاهد فيها الفيلة، إمّا تستحم في النهر، وإما تدرب أولادَها على الغسل، وحفلِ الأمتعة، ويُسَمُّون هذه الغابةَ بـ) مدرسة الفيلة(.. إلى أنْ تجد نفسك على صَخْرَةٍ) يَميلُ (التي لجأ إليها (جيمس بوند) سنة 1974 في شريط (الرجل ذو المسدس الذهبي) هذا إذا كنت من جيلي، الذي كان عاشقا لبوند، ومُدمنًا على أشرطته الجاسوسية، أمّا إذا كنت من هذا الجيل، فإنَّ تايلاند التي تلائم ذوقَك، توجد في هاتفك الذكي فقط!

وما أثار انتباهي، هو أنني وجدتُ نفسي منساقًا بالصدفة إلى سوقٍ شعبي كبيرٍ، مليئ بالطاولات، والطوابع، والأقلام، والآلات الدقيقة، ومزركش بالملصقاتِ الملونةِ، والجمل والعبارات الطويلة العريضة. ويَعِجُّ بالمتسوقين من كلِّ الأجناس البشرية، كأنه خليةُ نحلٍ نشيطةٌ، فأسررتُ في نفسي:

- ماذا يبيع هؤلاء؟!.. أو ماذا يشتغلون؟!.. وما الذي يشتريه منهُمُ المتبضِّعون؟!

وإذا بي أسمع تونسيا يقول لصديقه ضاحكا:

- ألا تريد أنْ تصبح دكتورا، تعالج مرضى السرطان؟!.. أو تصير مهندسًا أو مُحاميًا...؟!

اقتربتُ من التونسي أسأله:

- عُذرًا، سيدي، ماذا يبيع هؤلاء؟!

أجابني بسؤال:

- إنهم يبيعون الشهاداتِ، كالإجازة والدكتوراه، ورخصة السياقة، والجواز، لأية دولة تريد أن تسافر إليها، وحتى التأشيرة.. فهل تريد إحدى الشهادات؟!

أجبته باسمًا:

- لا سيدي، لم أغد في حاجةٍ ماسّةٍ إليها، لأنني كبرتُ وتقاعدتُ عن العمل، وأتركها

لك، أنت الشابُ اليافعُ، الذي ما زلتَ في بداية الحياة، تحلم بالمستقبل والغد الباسم!

ذاتَ ليلةٍ، عند عودتي إلى الفندق، طلبتُ من المُضيفةِ أنْ تُوافِيَني بـ(مُدَلِّكٍ) عِوَضَ أنثى، عَمَلا بنصيحة الشابِّ المغربي. فتأمَّلَتني طويلا، ثم ابْتَسَمتْ في دَلالٍ، ولم أفهمْ معنى حركتها غيرِ العاديةِ، حتى رأيتُ المدلكَ أمامي بباب غرفتي، وهو يَجولُ بلسانه بين شفتيه، المرَّةَ تلو الأخرى، فأدركتُ غرضَهُ، وإذْ ذاك، عرفتُ أنَّ المضيفةَ فَهِمَتْني خطأً.

ووجدتني كأنَّني ذلك الرجلُ الذي) فرَّ من الدُّبِّ، فسقط في الْجُبِّ) فأغلقتُ البابَ في وَجْهِهِ، وهاتفتُ المضيفةَ بأنْ تستبدلَه بمُدلِّكةٍ!

وفعلا، حضرتْ في الحين، تحمل بين يديها مَرْهَمًا وفُوطةً صغيرةً!

حيَّتني بالتايلاندية: سْواتْ دي (مرحبًا).. هل طلبتَ مُؤنسةً؟

أجبتها مُرْتبِكًا: لا، طلبتُ مُدلِّكةً!

فتحتِ البابَ أكثرَ، بلا إذْني، ودخلت قائلةً:

- لا فرقَ، سيدي، تمدَّدْ فوقَ السَّريرِ!

خلعتْ لباسَها، ونثرتْ غطاءَ المَرْهَم، قائلةً بعينين متلألئتين:

- أنْظُرْ، سيدي!.. هذا الْمَرْهَمُ، سيسهِّل العملية، فأنا لديَّ تجربةٌ مع كبار السِّنِّ مثلك!

قفزتُ من السرير:

- ماذا تقولين، يا هذه؟!.. أيَّةَ عمليةٍ تتحدَّثين عنها؟!

سألتني ذاهلةً:

- أجبني، أيُّها العربي: ألا تريد أنْ...!

- أتقصدين التَّذليك، أم شيئا آخرَ؟!

اِرْتدتْ لباسَها، وجَمَعتْ أغراضَها، ثم غادرتِ الغرفةَ، دون أنْ تغلقَ بابَها، وهي

تردد بصوتٍ عالٍ:

ـ عجبا!.. لم أر في حياتي عربيا يرفض أن...!

وهنا، تبادر إلى ذهني قولُ الشاعر نِزار قباني في إحدى القصائد:

ـ «العربي لا يعرف المرأةَ إلا فوقَ الفراشِ»!

طبعا، لا يُمكِنُنا أنْ نعمّم هذا القولَ على كلِّ العرب...!

8

فستان حبيبتي للمحروسة.. مصرا

...وفي

رحلتي التاسعة إلى المحروسةِ مِصْرَ، حملني القطارُ، رُفقةَ صديقتي الصّحافية السورية لُبنى جوهر، مائةً وعشرين كيلومترا من القاهرة إلى (المنصورة) أو كما يُطلقون عليها (جزيرةَ الورد) التي كانت عاصمةً له، قبل ثمانِمائةِ سنةٍ، مُحاطةً بثلاثِ بِرَكٍ مائيةٍ، حين شيدها الملك الأيوبي الحكيم، الكامل ناصر الدين الملقب بـ (أبي المعالي) !

لكنّ اسمَها الجديد، يشير إلى (النصر) الذي حقّقه المصريون الأفذاذُ على حملة الفرنسيين السابعة. ويقال إنّ ملكها كان سياسيا أكثرَ منه عسكريا، أي يجنح للسلم، وتدبير أمور مملكته بالعقل، ويتفادى إراقةَ الدماء. ففي ظُهر الثلاثاء 8 نونبر 1250 أصبحتِ المنصورةُ خاليةً من سُكّانها، إذْ دخلوا بيوتهم، وأغلقوا عليهم أبوابَها ونوافذَها بدقةٍ وإحكام، ليستدرجوا الغُزاةَ إلى ميدانها، ويوهِموهُمْ بأنّ أهلَها فرُّوا خائفين منهم، فـ «الحربُ خُدْعة» أليس كذلك؟!

وما أن توسّطوها، مغترين ومستقوين بجيشهم وعتادهم، حتى شُرِعَتِ الأبوابُ والنوافذُ، وهَجَمَ سُكانُها عليهم من كل الزوايا، يرشقونهم بالحجر والطُّوب والأواني، بل خلعوا الأبوابَ والشبابيك، ليضعوها متاريسَ، تحجز الجُنودَ، وتحُدُّ من حركتهم، ثم أسَروا قائدَهُمْ، وألقوا به في دار القاضي

فخْرِ الدّينِ بنِ لُقمانَ!

وفي سمائها الزرقاء، كان (النصر) على الصهاينة في 14 أكتوبر 1973 عدّها المؤرخون أطولَ معركةٍ جويةٍ بعد الحرب العالمية الثانية!.. والكاتب الكبير أنيس منصور، هو أولُ مَن دعا إلى هذا الإسم، خلفا للإسم السالف الذكر، وللآخر (الدَّقْهَلِيَّة(! ففي هذه السنة، انتصر المصريون في معركة جوية، دامتْ سِتُّ ساعاتٍ، مقابلَ انتصار الصهاينة في معركة بريةٍ، دامث ستةَ أيام حُسومًا، وصفها العربُ بنكسة 5 يونيو 1967!

في هذه المدينة وضواحيها، المُضَمَّخةِ بأريج الورد، المنتشيةِ بالنصر، المرويةِ بمياهِ النيلِ المنسابةِ، نشأتْ أرقى الشخصيات العلمية والأدبية والفنية في العالم العربي، منها عالم الفضاء الدكتور فاروق الباز، الذي حدّد للرواد ستةَ عشرَ موقعا على سطح القمر، يدرسونه، ويحللون تربتَه وحِجارتَه. وكبيرُ المؤرخين لعصر الأندلس عبدُ الله عِنان، والشاعرُ الرومانسي علي محمود طه، والكاتب المسرحي نجيب سرور، والفيلسوف أحمد لطفي السيد، الذي وصفه الأديب عباس محمود العقاد بـ «أفلاطون الأدب العربي» والفنانون عادل إمام، ويحيى الفخراني، وفاتن حمامة، وأم كلثوم، والقائمة طويلة...!

لم يُخطئ الأوائلُ، عندما وصفوها بـ(جزيرة الورد) فما زالتِ الأرضُ تجود، ولو بالنزْر اليسير منه، ولا أدلَّ على ذلك من سلوك أهل هذه المدينة، الذي يتّسم بالدماثة والبشاشة والسخاء والطيبوبة والرقة، والميل للشعر والكلام الجميل، و «الإنسانُ ابنُ بيئته» الطبيعية والاجتماعية والثقافية؛ فأريجُ الورد عطّرهم، كما عطّر آباءَهم وأجدادَهم، فأمسى إرثا ثقافيا ولغويا وأخلاقيا، يتوارثونه جيلا تلو جيل!

كنا، أنا ورفيقتي لبنى جوهر، نتمشّى الهُوَيْنى على ضفة النيل الخصيبة، بين الشجر الظليل، الذي تتمايل أغصانه المورقة الخضراء، فتنعكس على صفحة الماء، ضياءً وصفاءً وبَهاءً!

وبين الفينة والفينة، أقول لها مازحا:

ـ لا أدري، لماذا أزور المنصورةَ، مدينةَ الوردِ، وأنا صُحْبة أجملِ وردةٍ في الكون؟!

فتُطلق ضَحكةً، مُعلِّقةً:

ـ يا لك من ثعلبٍ!.. أتريد أنْ تستميلَني بكلماتك الشاعرية؟!

أثارتْ نظرَنا، ونحن نسير، شجرةٌ يتيمةٌ، طويلةُ السّاق، لا تشبه أخواتِها طولا وشكلا، تُطِلُّ عليهِنّ من عَلٍ في أنفةٍ وكِبْرياء، كأنها حارسةٌ لَهُنّ. لكنّها أرقُّ مِنهُنّ، تنشرح لها الصدورُ، وتُسَرُّ الأفئدةُ، وتُبْهَجُ العيونُ لشكلها الرشيق!

توقّفنا أمامَها لحظةً، نتأمّلُها بشيء من الدّهشة والانبهار!

اِلْتفتتْ إليّ لبنى باسمةً:

ـ ألم ترها من قبلُ؟!

ـ بلى!.. لقد رأيتها فيكِ، أيتها الحسناءُ؟!

تلألأتْ عيناها سرورًا قائلةً:

ـ كفى مبالغةً، فأنا مثلك عجوز، أذبلَ الزّمنُ زهرةَ عُمري!.. إنها (شجرةُ البانِ) اللينةُ، الناعمةُ الملمس، يشبّه بها الشعراءُ الحِسانَ، ويسمونها (شجرةَ الحياة) و (المعجزة) لأنها قيمة غذائية كاملة للفقراء!

يقول الشاعر الجاهلي قَيْسُ بنُ الخَطيم:

حَوراءُ جَيداءُ يُستَضاءُ بها

كأنّها خُوطُ بَانَةٍ قَصِفُ

ويقول أبو الطّيّب المُتنبّي:

وفاحَت عَنبَرا ورَنَت غَزالا

بَدَت قَمَرا ومالَت خُوطَ بانٍ

لها: إستأنفنا سيرَنا على الضفة، وأنا

- ومن مثلي في هذه الدنيا، أسير بين شجرتي (بانٍ) إحداهما

إنسية، وأخرى نباتية؟!

ردّت عليّ بأسى شديد:

- لكنّ الطبيعةَ، يا رفيقي، لا ترحمُنا، فتفعل فعلَها فينا!.. لا الإنسيةُ احتفظت بجمالِها وسحرِها، بل فقدت أرضَها ووطنَها، وها هي تقضي بقية حياتها ضائعةً في باريس. ولا النباتيةُ قاومت آثارَ التلوثِ، وتقلباتِ الجو، وحَرَّ العطش. وحتى الحديقة، التي كانت أكبرَ الحدائق في مصر، ذَوى وردُها وزهرُها، ولم يفضُل بها إلاّ الخَضيرُ والشجرُ. غير أن المواطنَ المصريَّ، الذي يعشق الجمالَ والفنَّ والشعرَ، مهما قست ظروفُه، أنشأ حديقةً أخرى باسم (حديقةِ الدُرّ).. والدُرُّ، جاريةٌ فاتنةٌ، تزوّجها توران شاه،

فقتله، وتقلّدتِ الحكمَ بدَلَهُ!

لم تذُق شجرةُ البانِ مرارةَ اليُتمَ وحدَها، إنما كانت، هناك على ضفة النيل، صخرةٌ، هي كذلك يتيمةٌ، يسمُّونها صخرةَ الملتقى، نسبةً إلى قصيد الشاعر الكبير إبراهيم ناجي، الذي كان يقتعدُها كلَّ مساءٍ، عند غروب الشمس، يُناجي من فوقِها النيلَ!

ويومًا ما، انحسر الماءُ عندها، فاستلهم منها أجملَ القصائد، يقول في مطلعها:

سألتكِ يا صخرةَ الملتقى

متى يجمع الدهرُ ما فرّقا؟

فيا صخرة جمعت مُهجتين

أفاءا إلى حُسنِها المُنتقى

اِقتربنا منها أكثرَ، لنتبرّك بإلهام ناجي، الذي يُحلِّق فوقَها، وإن كنا نُدركُ أنَّ «الشعراء يتبعهمُ الغاوونَ»!.. وإذا بنا نُباغَتُ بعشيقين جالسين خلفَها، يتهامسان ويتأوَّهان، فتراجعنا إلى الوراء قليلا، ثم انسحبنا ببطءٍ وهدوءٍ، خطوةً خطوةً، تاركين إياهُما يتمتّعان بتلك اللحظة المُمتعةِ التي يحظيان بها، كما كنا نحن نحظى بها في شبابنا!

ليست المنصورة حدائقَ ونيلًا فقط، إنما هي تاريخٌ شاهدٌ على أحداثٍ ومواقفَ بطوليةٍ. فأبرزُ آثارِها الحضارية، دارُ ابنِ لُقمانَ، الذي أُسِرَ فيها الملك الفرنسي لويسُ التاسعُ، تُعرَضُ بها لوحاتٌ وصورٌ وألبسةٌ، كالخوذِ والدُّروع والأواني، وأسلحةٌ، كالسيوفِ والخناجرِ، تُجسّد معركةَ تحرير المدينة من أيدي المغيرين. كما يقابلك

بالغرفة العليا، تمثالٌ للملك الفرنسي يجلس على كرسي، والقيد يكبّل يديه. وعند رأسه، تمثال للحارس الطواشي صبيح، فضلا عن قناديلَ مزخرفةٍ بآيات قرآنية، وتماثيـلَ، منها شجرة الدُّرّ، وتورانْ شاه بـنْ نَـجْـم الدّينِ، ثامنْ سلاطيـن الدولة الأيوبيـة، قـتـلـته زوجته شجرةُ الدُّرّ، لتستولي على الحكمِ، وتمثال الملك الصالح نَجْم الدّين أيُّوب...!

في اليوم السادس، توصّلنا بدعوةٍ من جامعة (الفيوم) فكان علينا أن نغادر المنصورةَ، وشجرتَها وصخرتَها اليتيمتين، لنقطعْ حوالي مائة وخمسة وعشرين كيلومترا. ورغـم أنني لست شاعرا، ولا رفيقتي لبنى، لأن جني الإلهام يأبى أن يستضيفنا في مملكة الشعر، فقد خطر ببالي أن أساهمَ بقصائدَ من شعر الأطفال، تحتفي بمصر ومكتبة الإسكندرية. فكانتْ مساهمتي في المهرجان، لافتةً للنظر، لأن كل الشعراء تـغـنـوا بالحب والعشق والغـرام والهُيام، إلا هذا الشيخَ، الذي تغنى بالوطن والأم والشجر والقمر والعصافير...!

والفيوم يعتبرونها (مصرَ الصُّغرى) لأنَّها تُطلُّ على نهر النّيل، وتحتضن كلَّ المجتمعات المُشَكّلة لمصر؛ مجتمع الزراعة، والصناعة، والصيد.. كما مرّتْ بكل الحضارات، من حقبة الحيوانات المنقرضة، كالفيلة والحيتان والقرود والدناصير إلى الحقبة الفرعونية، التي أصبحتْ فيها عاصمةً باسم (إهناسيا) يحكمها الملك (مينا) ثم تولّى (أمنمحات) الذي شيد هرما، ما زال قائما، بمنطقة (هوارة) وإليها ينتمي في المغرب هُواريو مدينة (أولاد تايمة) أي (المرأة والأرملة اليتيمة الأبوين) تبعد عن مدينة أكدير بأربعة وأربعين كيلومترا!

وبالمناسبة، توجد في الفيوم (وكالةُ المغاربةِ) ويسمونها بـ(القصبة) و (القنطرة) و (المعرش) لأنّ سقوفها خشبية، أي من عروش الشجر. وكان المغاربة ينزلون بها في العصور القديمة، فيتبضّعون ويتسوّقون ما يحتاجونه في طريقهم، سواء عند ذهابهم للحج، أو عند إيابهم، وبعضهم يُقيم فيها سنواتٍ، ثم يعود إلى المغرب...!

ويقال عن تسميتها، بأنها تعود إلى كلمة كانت متداولة (بيوم) وتعني (بركة أو بحيرة الماء) وتحولت إلى (فيوم) إلاّ أنّ شيخا، لقيته صُدفةً، له رأي آخر، أخبرني بأن المعنى الحقيقي، هو (ألفُ يومٍ) بمعنى أنّ زيارتها تتطلب منك أياما لا تحصى، لشساعتها وآثارها المترامية في كل جهة، كما أنّ بناءَها كان في ألفِ يومٍ. وعند مدخلها، تقابلك (مِسَلَّةُ الملكِ سنوسرث) من الجرانيت الوردي، تعلو بثلاثةَ عشرَ متـرًا) المِسَلَّة عمود أثري طويل، مربعُ الشكل، رأسه مُدَبَّب) كما يتوسط المدينةَ العتيقةَ (المسجدُ المعلقُ) لارتفاعه، بناهُ الأميرُ شليمانُ عام 1560 على رَبوةٍ!

وينصحك بعضُ الرحالة والعلماء، جزاهم الله خيرا، بأنك إذا أردت أن تشاهدَ آثارَ كلِّ الحضارات البشرية مجتمعةً، دون أنْ تُرهِق نفسك بزيارتها في بلدانها المتفرقة، فعليك أن تزور الفيوم؛ ففيها ستشاهد المعالم الحضارية والآثار العظيمة، كأنك شاهدت مصرَ كلَّها. ويُـذَرذِر علماءُ الحفريات بعضَ التوابل على هذه القولة، فيؤكدون: «بل تكون قد شاهدت تاريخَ الكرة الأرضية أيضا» وبذلك ستستغني عن فاس ومراكش ودمشق وبغداد وروما وغرناطة!

وتتميز الفيوم عن باقي المناطق المصرية، بمحميات طبيعية، مثل وادي الريان وشلالاته، وبحيرة قارون، ولا يبعد عنها معبدُ القصر إلا بكيلومترين فقط. كما يوجد وادي الحيتان، والسواقي السبع، أو سواقي الهدير، وهي مئتا ساقية لري الأراضي الزراعية، قبل أن تتطور طرق السقي (المقصود بالسواقي النَّواعير التي تدور بدفع الماء، أو بجر الماشية، كالجمل والحمار، وتحمل المِياهَ من النهر، لتصُبَّه في بركة أو في ساقية(.. وفي وادي الحيتان، بقايا هياكل عظمية، كان مَكانُها بحرُ (تيث) قبل أربعين مليون سنة. ويفتخر الفيوميون بعراقتهم التاريخية، فمنهم ظهرت أول رواية وطنية في التاريخ الإنساني، كتبها (سنوحي) على ورق البردي، واسمه يعني (ابنَ شجرةِ الجُمَّيز) التي كانت مقدسةً في عصر الفراعنة!

لم ينتهِ المهرجانُ، فما زالتِ القصائدُ تنثالُ من فوق المنصات، سواء داخل الجامعة، أو في قصور الثقافة، أي مراكزها. لكنّ لُبنى، ربما أُتخِمث شعرا، فأحست

بالملل، وبنمطية الإلقاء الحماسي، الذي يرتفع حينا، وحينا يخترق الآذانَ، فتنطلق التصفيقات بمناسبةٍ أو بغير مناسبةٍ. فأرغمتني أن نغادر إلى القاهرة، نقضي أياما هناك، بين قاعات مسارحها، وأجنحة متاحفها، وأبهاءِ مكتباتها!

وكذلك كان!.. ليلةَ عودتها إلى باريس، كنا نذْرعُ شارعَ طَلْعَت حَرْب، ذهابا وإيابا، فلمحتُ فستانا جذّابًا معروضًا في واجهةٍ زجاجيةٍ لمتجر ملابس النساء. تسمّرتُ أمامه، أتأمله بدهشة، سابحًا في عوالمَ خياليةٍ، حتى إنني

نسيتُ أنّها برُفْقتي، فدغدغتني في إبطي متعجبةً:

- إيهِ، أيها السّاهي!.. أين سبح بك عقلك؟!

إستفقتُ من غفلتي، وأنا أشير إلى الفستان:

- تمنيتُ لو أشتريه لك، فأراك ترتدينه قبل أن تعودي إلى باريس!

طبعتْ خدي بقبلة، وهمستْ في أذني:

- إذا اشتريته لي، سألبسه الليلة، قبل أن ننام!

- لكنّ ثمنه غالٍ جدا، فماذا عليّ أنْ أفعل، ونحن سنفترق الليلةَ!

تساءلتْ مستغربة:

- إذن، لن تنعم بالجنة، هذه الليلة، ولا الليالي القادمة!

طوّقتُ خصرها بيدي قائلا:

- غدا، سأتوجّه إلى الهيئة المصرية العامة للكتاب، كي أتسلم تعويض كتابي: « أنْ تسافر » و «أصدقاء الحديقة» فأسدد به ثمنَ عشرة فساتين!

اِلتفتت إليّ، ووضعت يدَيْها على كتفي، كأنّها ستجذبني إلى صدرها الدافئ، وطَوّحت شعرَها الناعم نحوي، حتى كدتُ أفقد صوابي، والمارّة يُحدّقون في حركاتنا، ثم قالت بثقةٍ:

- أتنازل عن أي هدية منك، شَرْطَ أنْ تتنازلَ عن تعويضك لأُسَرِ الشهداء، أتوافقني الرأي؟!

لم أتردّد في الموافقة، وكيف لا أقبل، ومصر تعاني أزمة خانقةً، لن تفلت منها بسلام!.. طبعا، إنّ هِبَتي لن تحلَّ المشكلَ، لكنها قطرةٌ في بحر، ويكفيني أن أُشعِر نفسي بأن فعلي في قصص الأطفال، يُطابق قولي في الواقع!

وفي الغد، قدمتُ لرئيس الهيئة رسالةً، أتنازل فيها عن تعويض كتابَي معا، وألتمس منه تحويلَهُ إلى حساب أسر الشهداء، كي يكون فستان حبيبتي للمحروسة.. مصرا!

* * *

9

تحفة الزائر لبلاد الجزائر!

كان علينا، ونَحنُ نَحُطّ في مطار (الهواري بومدين) أن نستقل طائرة أخرى إلى وَرْقلة، التي يصفها ابن خلدون بـ «بوابة الصحراء» وليون الإفريقي بـ«المدينة الأزلية» تبعد حوالي ثَمانمائة كيلومتر عن العاصمة، مُحتضنةً كنوزَ الفيافي والقِفار، من سلاسل جبلية، وربى، وكُثبانٍ رمليةٍ حمراءَ، وواحاتٍ خضراءَ، تشكّل لوحة، تؤثثها مناظر طبيعية فاتنة.

وأشهد أنّ الاستقبال في المطارين كان رفيعا، لَم أحظَ بِمثله من قبلُ، حتى ليلة عرسي قبل خمسين عاما، كأنني كنتُ أحلم. فالابتسامة تتحصّن في وجوههم المشرقة، تأبى أن تتخلّى عن قطعة منها، بل تتصدى (عَبَسَ وَتَوَلَّى) كيلا يتسلل إلى أنحائها، ولا تطرُق أذنيك إلا كلماتٌ طيبةٌ، تتـلألأ بهجةً وسرورًا، والطمأنينة والمحبّة، وكؤوس الشاي علينا تدور:

ـ ألف مرحى ومرحى بأشقائنا المغاربة.. نَحنُ إخوةٌ، وسنظل إخوةً إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومن عليها...!

فتحس بِمنبعِها العميق، تنبعث منه صافيةً، صادقةً، بلا مساحيقَ ولا زخارفَ.. وتُلفي نفسك، فعلا، بين إخوتك (لا إخوة يوسف) الذين يكنّون لك كلَّ الحب!.. تلك الحميمية التي تعيشها بوجدانك، وأنت بين أهلك وأصدقائك المقربين!.. بل لن تشعر بالغربة، ولا بالمسافة التي قطعتها على متن طائرتين، مغربية وجزائرية!...وإن كذّبتموني، فاسألوا ليون الإفريقي (الحسنَ بنَ مُحمدٍ الوَزّانِ) الذي قال: «.. وأهلُ وارِكلةَ كرماء شرفاء، يستقبلون الغرباءَ استقبالا حسنا.. ولِوارَكْلةَ أميرٌ يُعيلُ نَحْوَ ألفِ فارِسٍ مِنْ حَرَسِهِ... » فهؤلاء هُمُ أحفادُ الذين تحدّث عنهمُ ليون!

هناك، ستكتشف ثقافةَ البلد، من فكرٍ وأدبٍ ومعارفَ وموسيقى وتشكيلٍ...وهناك، فقط، ستلحظ تأثيرَ هذه الثقافة في سلوك الجزائري، ذلك المواطن الذي يعشق الحياة البهية، والعيش الهني، والرفاء لبني الإنسان، مهما كانوا، وأينما كانوا!... وهناك، فقط، ستذوب كل الخلافات المجانية التي على بالك، فأرجوك، سيدي، ألاّ تستحضرها معي، وأنت تقرأ رحلتي، وإلا ضِعنا، أنا وأنت، في متاهة لا قرار لَها؟!

ووَرْقلَة، أو كما يسمونَها (التمرة) التي ضمّتنا إلى حضنها الدافئ، هي من أقدم المدن الإسلامية في المغرب العربي، وأقوى المناطق الجزائرية اقتصادا، لأنّها تقع بين الطرق التجارية لإفريقيا، وفي ولايتها توجد أهمُّ آبار الذهب الأسود، أي البترول (حاسّي مسعود) بل أكبر احتياطي له وللغاز الطبيعي. كما تشتمل على آثار عريقة، كالقصر العتيق الذي يشكل لؤلؤةً، تتوسط العقد، وتعلو أحدَ أبوابه، المسقى (البستان) القولة التالية: «القصر تاريخ وحضارة».. وكذا القصور الفخمة الستة (يقصد بالقصر القصبة والحي القديم، وما شاكل ذلك...) والمدينة كلها واحة خصبة، تَحضنها بساتينُ النخيل، التي تُدِرُّ ثروةً هائلةً على المنطقة، بفضل نَهر (ميه) حتى إن الباحث الإثنوغرافي (شارل فيرو) سمّاها «سلطانةَ الواحاتِ» ووصفها الشّريف الإدريسي بـ «الغنية» لأن سكانَها كانوا يقطعون المسافاتِ الطويلةَ والشّاقةَ، غيرَ مبالين بالخطر الطبيعي والبشري، ليصلوا إلى إفريقيا السوداء، كغانا، فيجلبون منها الذهب.. وترجع تسميتها بـ(ورقلة) إلى سكانها الأوائل (بني الوَجْلان) ويعني الاسم (الرجل الحر)..!

ولأنّها باب الصحراء، وسلطانة الواحات، ولأنها الثرية بنفطها الغزير، ونخلها المثمر، فإن المستعمر حاول عبثا في 27 فبراير 1962 أن يفصلها، هي وكافة أراضي الصحراء، عن الشمال، فرفض (رجالُها الأحرارُ) هذه الخطةَ الاستعمارية، التي تسعى إلى التفرقة بين الشقيقين، ليستحوذ على ثروات البلاد، ويَخرم أهلَها. فنظموا مظاهراتٍ ومسيراتٍ، وخاضوا معه مواجهاتٍ، سقط فيها العديدُ من الضحايا.. خلّدها الشاعر المغربي مُحمّد الحَلوي في قصيدته «صَرخةُ الجزائر»:

زعَموا أرضَكِ الجزائرَ مِلْكًا

لِفَرَنْسا تَسَلْمَتْهُ اغْتِناما

وتَناسَوْا حَضارَةَ الْعَرَبِ الأُمْ

جادِ فيها والضَّادَ والإسلاما

زعَموا أهلَها رَعايا وشاؤوا

أنْ يسوقوا أباتَها أغناما

فإذا بالأحرارِ يَفتَشِقونَ السَّـ

يفَ ناراً ويَكشِفونَ اللِّثاما

وها هي، اليوم (عنقاءُ هذا العصر) تنبعثُ من جديد، لتشهد نَهضة عمرانية، فتُحيي مكوناتِها الحضاريةَ والثقافيةَ والفكرية، ما يُحفِّز العلماءَ والأدباء والصّحافيين والباحثين والفنانين والسائحين على زيارتِها، والنَّهل من تراثها الغني!

ولقد شعر أهلها بهذا الدور الثقافي الكبير، فحولوا (مغاراتٍ وكهوفا صخريةً) موغلة في القِدَم، إلى قصورٍ ونوادٍ ومتاحف، والدَّورُ نفسُه، كانت تؤديه قبل قرونٍ، إذ كانت قوافلُ التجار والمسافرين، تتخذها أماكنَ للراحة والإقامة، وملاذا في الظروف الصعبة. كما حولوا الخنادق والأخاديدَ القديمة إلى طرقات ومَمرّات ليطّلع الزائر والدارس من خلالِها على ملتقى الطرق، الواصلة بين شَمالي إفريقيا والصحراء!

تزخر ورقلة بآثار لا تُحصى، ضاربة في الماضي البعيد، تَجعلها قبلةَ المؤرخين والباحثين في بطون التاريخ. فهناك (سَدراتة) المدينة الأثرية، ومنها قادتنا أرجلنا إلى بُرْجَي (مَلاّلة) و(ابن إدريس).. وإلى قصور (الشط) و(أنقوسة) و(سيدي خُوَيْلد)

و(العالية) و(تَماسين) و(بغداد) و(عُجاجة) و(مَستاوة) ثُمَّ إلى مغارات (الخَضْريات) و(العلوية) و(الغولة) وأخريات... ومنها إلى (كنيسة ورقلة) و(المتحف الصحراوي)... وإلى مساجد (سيدي خويلد) و(تَماسين) و(سيدي صالَح) و(الأباضي)...وإلى الزوايا (التيجانية) و(سيدي الهاشمي) و(سيدي علي بن الصديق)...وإلى الأضرحة (سيدي مُحمد السايح) و(بوحنية) و(تغمرة)...لكنْ، لا يعني هذا السَّردُ للأماكن التاريخية والدينية، أن الثقافة في ورقلة والثقافة الجزائرية، بصفة عامة، تَجنحُ نَحو التقليد، أو ما زالت تَخضُ الماضي، ولَمْ تستطع أن تتخلص من شَرنقته. لا، إنّها بقدر ما تعتني بالموروث الثقافي، كالزخرفة في القصور والمساجد، والأضرحة، والزوايا، والرسوم الدّالة في الكهوف، والصناعة الفخارية والخشبية والجلدية...وأشكال السرد الشَّفهي، كالقصة والحكاية والسِّيَر والألغاز والأحاجي والنوادر... نلحظها تعمل على ترسيخ الأجناس الأدبية والفنية والفكرية الحديثة، كالشعر والمسرح والقصة والرواية والمقالة والتشكيل والسينما...بل تستفيد من التقنيات العالَمية المتقدمة، وتُحاول مَزجَها مع تراثها، أو مع مكوناتِها الهُوِيتيَّة. لأن أيَّ تطور في بنية الفكر والفن والأدب، وفي العلم والصناعة، وحتى في الفلاحة، لا ينجح إلا عبر تَحديث الموروث، وليس بالتنكُّر له، والظَّنّ بأنّ الارتِماء في حِجْر الآخر، سيقفز بأهله إلى الطليعة. وكمثال، سرّني أن أطّلع على ما حققته في مجال المخطوطات، عبر تقنية (الرقمنة) ما يساعد القارئَ على سَبْر أغوار هذه المخطوطات، التي تبلغ حوالي أربعة آلاف ومائتي مَخطوط، وبِهذه التقنية، حافظت على تراثها من التلف والتلاشي، رغم مرور السنين، وتعاقب العقود. عِلماً بأن الجزائر تدّخِر كتبا ومؤلفاتٍ مَخطوطةً، تباشر، دراسةً وتَحليلا، قضايا متنوعةً، ذات قيمة عالية في تسيير المجتمع العربي، وتدبير شؤونه، سواء في الدين، أو في الفلسفة والأدب والتاريخ واللغة والطب وفي الرياضيات أيضًا..!

طلّقنا الصحراءَ طلاقا رجعيا، أي غادرناها مؤقتا، وفي نيتنا أن نعود إلى رحابها، ثُمّ تأهلنا بالشمال، فيَمّمنا أوجُهَنا إلى الجزائر العاصمة، ولِمَ لا نفعل، فنكتشف ذلك الفرق بين جَمال الجنوب وجَمال الشمال؟

وللعاصمة أسماء شتى، تدلّ على جَمالها، فالبعض يسميها (البيضاء)

لِمَا تكتسي بناياتُها من بياض، والبعض يصفها بـ (المحروسة) و(مدينة البهجة) فهي، حقا، بَهجة لنظر الزائر، وهناك من يُدَرِّجُها ويُحَوِّرُها، فيناديها بـ(الدزايَز) و(لزايَز) وآخر يذهب بعيدا، فينطق بِها منسوبةً إلى إحدى قبائل صنهاجة (جزائر بني مزغنة) الذين يعدونَهم أوائلَ شكّانِها.. ولَها أسماء أخرى، لكنها قديـمة، لَم تعد تُذكَر. منها (أرجيل) المكان المغطى، و(أقسيون) ويعني العدد (عشرين) ذلك أن في عهد اليونان، كانت بِها عشرون جزيرةً، قبالة مينائها، كما أن رفاق (هرقل) يبلغون هذا العددَ نفسَه، فسكنوها، فيما عاد هو إلى اليونان (تقول، وهـي تطـل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ويعـدُّونَها من أجمل مدنه، لأنها تزدَني، فضلا عن الساحل، بالتلال والسهول والأراضي الخصبة، التي تَحتـفي بالنخيل وأشجار البرتقال والزيتون. وهنا، سأصبح، حقا، كـ(أهل الكهف) لأنني انبهرت من تطور المدينة الحديثة، التي لَم أرها منذ رُبُع قرنٍ بالتمام والكمال. أما القديـمة (القصبة) فبطبيعة الحال، ما زالت، كما تركتها، كفاس ومكناس ومراكش.. تقاوم الزمان، الذي يفعل أفاعيله في البنيان، لأنَّها تعاني من الشيخوخة. هي الشاهد على تاريخ الجزائر، عبر آلاف السنين، فما أن تدنو منها، حتى تطل عليك من تلة عالية، بقصورها الأندلسية الفخمة، ومساجدها القديـمة، كـ(الكبير) و(كتشاوة) و(سيدي عبد الرحمن الثعالبي) وإذا توغّلت في دروبِها الضيقة، فستجد نفسك تائها، لا تدري أين تقودك قدماك. وما عليك في هذه الحالة، إلا أن تُيَمِّمَ وجهك نحو البحر لتجد لك مَخرَجا. فلا ننسى أنها عَمّرتْ حوالي ألفي سنة، منذ نزول الفنيقيين والرومان بِها، ثُمّ جدّد شبابَها المهاجرون الأندلسيون، فالعثمانيون الذين شيدوا بِها دورا وقصورا، منها قصر أحمد باي، وقصر مصطفى باشا، وقصر سيدي عبد الرحمن، ودار عزيزة بنت السلطان، وقصر دار الصوف، ودار القادس، ودار الحمرة، ودار السبيطار التي تناولَها الروائي مُحمّد ديب في رواياته، وإحداها بالاسم نفسه، وتحولت بعض هذه الدور والقصور إلى مكتبات ودور الثقافة. وتوجد بِها أزقة، كل منها يَحتوي على دكاكين حرفة ما، مثل أسواقنا بالمدن العتيقة، فهناك زقاق للخياطين، وثانٍ للنجارين، وآخرُ للصّفّارين، وهكذا...ومن ذكرياتي بِها، أنني مررتُ صباحا باكرا بِمَطعم صغير، وكنت أفْرُكُ يديّ من البرد، والجوع يغزل أمعائي غزلا، فنادى عليّ صاحبُه قائلا:

ـ يلزمك أن لا تفرُكَ يديك، لتسخن جسمك!

إبتسمتُ، وأنا أنفخ في يدي وأحرك رجلي، ثم سألته:

ـ وماذا يلزمني، كي يذهب البردُ عني، أيُّها (الطبيبُ)؟

رد ضاحكا:

ـ الفَرِك!

إِستغربتُ من جوابه، فسألته ثانية في دهشة:

ـ ألا تراني أفرُك يدي؟!

أطلق ضحكة عالية قائلا:

ـ لالا، أنا أقصد شربة جزائرية، نسميها (الفرك).. هيا، أُدخُـلْ، مغربي

لتشربَها ساخنة، فتعطيني رأيك فيها!

جلست إلى إحدى الموائد، ثُمّ ناولني صحنا مُقعّرا، يفور منه بُخارُ الفرك الْحامي (شعير يُفرَكُ، ويُمْكن إضافة حِمَّص وقطع لَحم، وخضر، وتوابل، ومواد أخرى...) فأحسست، فعلا، بِحرارة تسري في جسمي، وتُنْعِش نفسي!

لَمّا انتهيت من شربِها، أخرجتُ مائةَ دينار (حوالي أربعة دراهم ونصف) وهَمَمْتُ بِمَدِّها له، فأقسم باليمين الْمغلظة ألا يتسلمها مني:

ـ لا، لا أقبل منك نقودا، وأنت جار لي!.. أعِدْ نقودك إلى جيبك!

وأضاف، وهو يدفع يدي نَحو جيبي:

ـ لا تنسَ أنني دعوتك إلى شربِها، ولَمْ تطلبها من تلقاء نفسك!

ولقد جذبتني الشخصية الْجزائرية، لتميزها عن سائر الشخصيات في العالَم العربي. ولَمْ أكُنْ أريد أن أحشر أنفي في هذا الْمجال، أو أتطاول عليه، لأنه أكبر من حجمي، فأنا لستُ عالِمَ اجتماع أو عالِمَ (إناسة) لولا أنني تأكدتُ من ثُبوتية هذه

الشخصية ورُسوخيتها على مدى حوالي خَمسة عقود. فقد زرتُ الجزائر في 1973 وفي 1988 و1990 وأثناءها كانت الحُدود مفتوحة على مِصراعيها، يكفي أن تَحمل حقيبتك على ظهرك، وتَمتطي القطار، لتُلفِيَ نفسك في اليوم عينه، تتجول في البلد الآخر، أو تَحتسي كأسَ شايٍ، ثُمّ تعود إلى بلدك توّا، فيا لَغَدْرِ الزَّمانِ اللّعين ! .. وإنْ كان الشاعر يُخالفني في هذا الحُكم:

نُعيبُ زَمانَنا، والعيبُ فينا

وما لزَمانِنا عَيبٌ سِوانا

ونَهجو ذا الزَّمانَ بغيرِ ذَنبٍ

ولَوْ نَطَقَ الزَّمانُ لنا هَجانا

وها أنا أزورها في فجر الألفية الثالثة، فأجد إنسانَها مازال كما عرفته، لَمْ يُبَدِّلْ تبديلا، منذ أن زرتُها أول مرة، فحمدتُ الله، لأنه لَمْ يَحصل لي ما حصل لأهل الكهف؛ فإنسانُها مازال، كما عَهِدْتُه، متمسكا بقيمه ومبادئه، لَمْ تغير العولَمةُ من سلوكه شيئا، ولا بدّلته التحولاتُ الإقليمية والدولية!

لكنني سألت نفسي بتحدٍّ سافر:

ـ لِمَ لا أتعدّى حدودي، فأميط اللثامَ عن هذه الشخصية، التي فتنتني؟!.. أهناك من يزور الجزائر أكثرَ من أربع مرات، ولا يتحدث، ولو قليلا، عن أكبر ثروة تَملكها (ولن تنضُب) ألا وهي الإنسان؟!.. فكان عليّ أن أحتاط كثيرا، وأنا أرافق إخوتي الجزائريين، بعد أنْ ألمَفتُ بِخصائصِ شخصيتهم؛ فالتواضع سِمة عامة، يُمكنك، سيدي، أن تلمسها في ذوي المَهامّ العليا، قبل الدنيا، حتى إنّني لاحظتُ التواضُعَ نفسَهُ يخجل أمامهم ويندى جبينه عرقا (ما هذه المبالغة، أيها الحاكي؟!.. أتدري ما تقول، أم تَهذي؟!) فيطأطئ ـ التواضع ـ رأسَه لَهُم، معترفا بأنانيته وعجرفته، وما

عليه إلا أن يتعلّمَ منهم، أو يعترف بخيبته وهزيـمته، فنبحث لنا عن سِمة أخرى تليق بتلك الشخصية الجزائرية المتزنة!

ويرافق (التواضُعَ) أصدقاءُ آخرون، لا يقلّـون قيمةً عنه، كالصدق والصّراحة، قولا وعملا، والرؤية الموضوعية، والتلقائية في إبداء الرأي، والمبادرة الجريئة، والتّحدي والصّرامة، والنفَس الطويل، والاعتماد على النفس، والاعتداد بالذات، والأنفة والكبرياء، والاستماتة في المواقف الصعبة، والاتّزان في تَحليل الأمور، وإصدار الأحكام، والتدين، والإيمان بِمبدأ المعاملة بالمثل.. وهاتِ، يا خصائصُ، يتعذّر عليّ سردُها جُملةً وتفصيلا... وإذا كانت عامّةً، تُميّز الشخصية الجزائرية، فإنّ هناك استثناءاتٍ، بطبيعة الحال، لأنّ الحقيقةَ نسبيةٌ في السلوك البشري!

* * *